

M A Y S A L O O N H A D I

رواية
NOVEL

ميسلون هادي

نبوة
فرعون



نبوءة فرعون/ رواية عربية
مبلون هادي / مؤلفة من العراق
الطبعة الثانية (متفحة)، 2016

حقوق الطبع محفوظة ©



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LTU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190

تلفاكس: 1 707892 00961 - 1 707891 00961

بيروت - لبنان

E-mail: mkpublishing@terra.net.lb

موقع الدار الإلكتروني: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع

ص.ب. 9157، عمان، 11191 الأردن،

هاتف: 6 5605432 00962، هاتفكس: 6 5685501 00962

E-mail: info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفني:

ستيف سيم © عمان، هاتف 7 95297109 +962

لوحة الغلاف: فيسلاف فالكوسكي / بولندا

الصفّ الضوئي: المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت، لبنان

التنفيذ الطباعي: ديمو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN: 978-614-419-677-9

ميسلون هادي

نبوة

فرعون



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي
وَعَیْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ
وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

قرآن کریم / سورة هود

إهداء

إلى الأب . . وإلى الابن

في كبرياء الشرير يحترق المسكين

مزامير داود/ م ١٠

ضحكة

قال (مشمش) لوالدته :

- كنت أتمنى أن أعيش في العصور الوسطى .

- حقاً؟! ولماذا؟!!

- لتكون دروس التاريخ التي يجب أن أستذكرها أقل!

مجلة ميكي

العدد ١٧٠٦ - ٣٠/ديسمبر/١٩٩٣

شخصيات الرواية

- * منصور ماشي السالمدار .
- * هنية : زوجته الأولى .
- * ختام : زوجته الثانية .
- * بلقيس : زوجته الثالثة .
- * يحيى : ابنه من بلقيس .
- * شاكرين وصابرين : ابنتاه من هنية .
- * توفيق وصلاح ونجاح وفلاح : أولاده من هنية .
- * عدنان وقحطان ونعمان وغسان وعمران وعبد الرحمن :
أولاده من ختام .
- * عبد الملك : الجار الفنان .
- * ملائكة ونهى وليلى : بنات الفنان .
- * كحيله : جارة
- * الأب والابن والمستشار .

الفصل الأول

هوذا صاحب الأحلام قادم

(١)

في نهايات القرن العشرين وأواخر العهد التلفزيوني الوسيط ، وهو العصر الذي يقع بين أيام اورزدي باك وليالي الستلايت ، ويفصل بين أعوام الموسكوفج وسنوات المنيفست ، ولدت بلقيس بنورة ابنها يحييا منصور ماشي السالمدار ، فكان أبرع جمالاً من أخوته العشرة الذين سبقوه ، وأوفر حظاً من أختيه التوأم اللتين لحقتاه . واحدة منهما قضت في رحم الأم مختنقة ، ووُلدت الأخرى بيضاء ملساء لا تفهم ولا تكف عن الابتسام .

جاءها المخاض في ليلة كانونية مظلمة ، فولدت يحييا على سجادة تغطي الأرض في غرفة النوم ، وقطعت حبل الخلاص بيديها على ضوء لالة مكسورة زجاجتها متروسة بالسخام ، فلم تر وجهه النوراني النحيف جيداً في تلك اللحظة العصبية ، ولا رآه أبوه منصور الذي كان يخوض في المياه الطامية بين أرض الكويت وأرض العراق . . . توقف القصف بين غارة وأخرى ، وصدحت صافرة الأمان ، فجاءت زوجات أبيه ، ورأينه نائماً في المهد على نور الصباح الكانوني القادم من النافذة . . وقالت واحدة للأخرى :

- ما أجمله طفل اللالة!

سمعهن يحيا وابتسم ، وبكى طلباً للحليب فتناوبن على إرضاعه واحدة تلو الأخرى ، وطابت نفسه بتذوق نكهات شائقة من الحليب يأتيه من أطباق ناعمة شهية الرائحة ، والتذّ عيشاً بطعامه الهني ، ونام في الأحضان نوماً رغيذاً لم تنل منه أصوات القذائف أو هدير القاصفات ولا أناشيد الفتى الوسيم توفيق منصور ، ابن أبيه من هنية ضرّة بلقيس ، والتي كان يصدق بها كل يوم في حديقة الدار بعد أن يأكل ويشبع ويخرج إلى الشمس المشرقة .

بعد ذلك اليوم بسبعة أيام ، أي في اليوم الرابع من شباط ولدت هنية أم توفيق ، وضرة بلقيس ، توأمين من بطن واحدة إحداهما ماتت فدفنوها في الخرابة بجوار بيتهم بعد أن سجلوها في شهادة الوفاة باسم صابرين ، وأخرى لا تبكي ولا تجوع ولا تكف عن الابتسام ، فحمدت هنية الله على نعمته ، وشكرته على تلك الحال وعلى كل حال ، وأسمنتها شاكرين باقتراح من جاراها الفنان الذي وجد في الاسم تهكماً صارخاً على البلاد التي تسببت في موت الصغار وخراب الديار . . فأرسلت لهم بدل الضفادع والجراد والعناكب ، الطائرات والقاذفات والدبابات والقنابل الذكية والعنقودية والألوية المجوقلة والقوات الخاصة وحاملات الطائرات والغواصات والقاصفات والسفن البرمائية والصواريخ العابرة للقارات والبراري والمحيطات .

بعد أربعين يوماً امتلاً الخل دوداً ، وانقطع طمث النفاس ،
وبتروا ليحيا غرلته ، وانفض عزاء منصور ماشي السالم دار
الذي لم يعد من حفر الباطن إلى بيته قط ، وعندما سكت
صوت الصراخ أرضعت بلقيس ابنها يحيا لبن صدرها مرأً وهي
مغشوة ، فراح يتقلب في فراشه من الوجد ، ولا يكف عن
الصراخ ليل نهار إلا عندما تأخذه إلى حضنها وتمشي به قليلاً
بين الحجرات ، فيهدأ لحظات معدودات ثم يعاود بكاءه العالي
وهو يتلوى ألماً من جديد . ضررتها هنية قالت لها إن هذا الألم
يأتي من حرقة الحليب وأوصتها بسقيه شراب القونداغ ، وبأن
تعطيه السبع مايات حتى تهدأ نفسه وتطيب آلامه ، فاشترت
بلقيس له اليانسون والبابونج والهيل والكمون والسعدة والورد
ماوي والهندبة والمستكة وطلع النخل والبطنج . . وجمعتها ،
حسب ما قالت لها هنية ، في إناء مليء بالماء وغلتها على النار
مع ورق الياس والجوري وقشور البرتقال لحين أن فارت وتساعد
منها البخار ، فخففتها كثيراً ، وراحت تسقي منها يحيا وهي
باردة بملعقة الشاي . يحيا يعكنش وجهه الطري كلما مست
الملعقة فمه ، ثم سرعان ما يتمطق بها لسانه الغض على مهل ،
ويحتسي رشفة رشفة حلاوة ما يوجد فيها من ماء قراح .
عندئذٍ تهدهده بلقيس وتطبطب على كتفه وتجلب له النعاس
بترنيمة تقول :

ديللول يا الولد يا بني ديللول

عدوك عليل وساكن الجول

فيسمعها يحيا وبيتسم ، ثم تغفو عيناه رغداً وراحة ،
وعندما تكف أمه عن الغناء يفتح عينيه من جديد بصعوبة ،
وهو يقاوم النعاس بقوة لكي يبقى في حضن أمه ويجعلها تغني
له من جديد .

لكن ساكن الجول لم يكن عليلًا ، ولم يكن يعلم بأمر
يحيا الذي نذرت أمه من الله في يوم زكريا ، ثم ولدته في
الثامن والعشرين من كانون الثاني من العام الذي جاء به
أصحاب الفيل إلى الديار ، فكان كلما وقف ساكن الجول أمام
المرأة سألها :

- يا امرأة الجدار .. يا امرأة الجدار ..

من أقوى الرجال في هذي الديار؟

تقول له :

- أنت أقوى الرجال في هذي الديار ..

فينتشي ساكن الجول وينتعش ويحدث نفسه قائلاً إن
الوقت قد حان لكي يعاود البحث عن الماء في السطح الجليدي
لكوكب المريخ ، ويقطع ملايين الأميال الضوئية من طريق
محفوف بالمخاطر للوصول إليه . وقال أيضاً إن دولاب أضواء
الدنيا قد دار على اليوم الذي جلس فيه الدب الأحمر مع
الأفرو- أمريكي الأبيض ، وقال له وهو يحك جبهته المشوشة
بالمنجل والمطرقة : لم أعد عدوك ، فابحث لك عن عدو جديد .

ولم يكن في بيت يحيا مرأة سوى كسرة صغيرة تضعها أمه على نافذة المطبخ المناظرة لحوض الغسيل ، وأحياناً تنقلها إلى حقيبتها قبل أن تخرج إلى دوامها اليومي في (بدالة الشعب) حيث تواجه الداخلين إلى المبنى وهي تقف خلف رف خشبي طويل ينتهي بميزان . . وتصل إلى عملها يومياً بحافلة زرقاء قيل إنها قارونية جاؤوا بها من أرض المعارض في غزو الكويت . . مريحة جداً عندما تسير وتؤرجحهم فوق طسات الشوارع بسلاسة دودة القز السمينة التي تدور بالأطفال صاعدة نازلة في قفصها الأزلي . . أجيال وأجيال ظلت تذهب وتجيء إلى مدينة الألعاب القريبة من سوق الثلاثاء لتركب هذه الدودة التي لا تموت .

هذه الحافلة الزرقاء يسمونها (الخط) ، وفيها فقط تدع بلقيس الربطة السوداء تنزلق من على رأسها ، فتتحول من أم يحيا إلى بلقيس البلورة السمراء الجميلة التي تنظر من النافذة المفتوحة على العالم ، فتشعر مع كل نسمة هواء تهب عليها أنها تحيا وتولد للتو ، وأن الشيب قد اختفى من شعرها الكستنائي الناعم المتطاير في الهواء ، وأنها عادت طفلة من جديد .

في الخط خرز وعطور وقرآصات
تسبح في الهواء الطلق
في الخط سحابة ثرثرات

عن أنطونيا
ومانويلا
وفرانسيسكو ساليناز
في الخط
دجاجاتهن تأكل وتنام فقط
ودجاجات الجيران تبيض
في الخط
فيروز تروي قصة عذاب
وحب وحكاية غرام
في الخط
عيون تضبط الوقت
كلما مرت بها ساعة الجامع
في الخط
شوارع تُفنى كل يوم
في عيون تراها
ولكنها في اليوم التالي
تعاود الدخول من النوافذ
لُفنى من جديد!

كل يوم في الساعة الثامنة وعشر دقائق يتوقف الخط عند باب البدالة ، فتحكم بلقيس بنورة شد الربطة السوداء فوق رأسها وحول وجهها وعنقها ، وتتحول جميلة الجميلات من

نبيلة عبيد إلى أم يحيى التي تضع مئة صورة لصدام في جزارها
تتناقص كخلالات العبد وهي تضع الطوابع على المضاريف
وصولاً إلى الضحى الذي تفوح منه روائح الباذنجان المقلي
والشاي الخدران وأصوات مذياع منتهى الذي يهوى انتخاب
الأغاني التي تذوب لها القلوب من «أدري بيك مشغول بهوى
الأسمر» إلى «أغار من الهوا لو لاعب زلوفك خايف من عيون
الناس لا تشوفك». ذلك هو وقت الصباح الذي كانت تشارك
فيه منتهى بلقيس فطورها الصباحي وأغاني رياض أحمد ورضا
علي وعفيفة إسكندر، قبل أن يولد يحيى بأعوام، وظلت
تشاركها فيه بعد ولادته بعدة سنوات عجاف اختفت فيها
الخردة من الجزادين والطائرات من السماء والحلوى من
الأسواق، إلى أن جاء اليوم الذي تفوهت فيه منتهى باسم
(لافاش كيري)، فهلعت بلقيس وفزت.

في اليوم التالي لذلك اليوم لاحظت بلقيس أن منتهى
تضع في أذنها قرطاً من الذهب الحقيقي يتدلى بالقرب من
شعرها كالثرى، فانكمشت مرة أخرى وضجت ورفضت لوحاً
من الشوكولاته مصنوعاً من الكاكاو الخالص طلبت منتهى أن
تأخذه ليحيا بدلاً من أصابع التمر وشرائح القمر الدين-وحب
الشمسي قمر. منذ ذلك اليوم اعتزلت بلقيس فطورها
الصباحي مع منتهى، وبدأت تتجاهلها وتتجاهلها كلما جاءت
في الضحى بإبريق الشاي وقدمت لها مثلثاً من مثلثات الجبنة

المطبوخة ، أو جعلت من يحيا حجتها لعرض علبة زرقاء معدنية من البيبسي كولا كانت بلقيس قد رأتها لأول مرة في حياتها وهي معروضة في إعلان ورقي يغطي زجاجة باب النجار . . رأتها ثاني مرة محمولة بيد منتهى التي تدندشت هي الأخرى بسوار من الذهب اعتقدت منتهى في بادئ الأمر أنه ليس ذهباً ، ولكن تبين فيما بعد أنه من العيار الواحد والعشرين قيراطاً ، وأن حبات النمنم الأحمر التي تزينه هي من حجارة ثمينة اسمها الياقوت .

(٢)

في يوم من الأيام نسيتُ بلقيس بنورة أن تضع كسرة المرأة في حقيبتها فاقترب منها يحيا والتقطها من المنضدة ونظر فيها ملياً . . اهتزت المرأة بين يديه وتحركت حتى كادت تجرحه لولا أن هرعت إليه هنية ، ضرة بلقيس ، ورفعته من الأرض ثم مسحت زجاجة المرأة بدشداشتها الململ ووضعت المرأة أمام وجهه بشكل صحيح . ابتسم يحيا طويلاً ، وراح يطلق الكركرات أمام المرأة ، ثم يسعل من شدة ما ضحك وكركر ، فنظرت له هنية ملياً في وجهه وظلت تنظر إليه وتواصل النظر ويحيا لا يكف عن الضحك والسعال . قالت له :

- ما بك؟ . . ها . . ما بك؟

ولم يجبها يحيا الذي كان قد تأخر كثيراً في الكلام ، فخرجت به إلى الحديقة حيث كان أخوه من أبيه ، توفيق منصور ابنها ، يغني «عبرت الشط على مودك . . خليتك على راسي» ، فقالت له أمه هنية :

- خذ يحيا بقربك ، ولا تدعه يبكي .

ثم راحت هنية أم توفيق تطعم دجاجاتها العزيزات التي ، ما أن ارتفع سعر البيضة من عشرة فلوس إلى عشرة دنانير ، حتى

وجب تكثيرها باستقدام ديك هراتي حسن الصوت يصول ويجول في الحديقة وينطلق أحياناً كالسهم إلى داخل البيت كلما رأى باب المطبخ مفتوحاً . قالت هنية ليحيا دون أن تلتفت إليه :

- تعال وشوف ، يايحيا .. تيتي .. تيتي .

ولم يجبها .

- تيتي .

ولم يجب يحيا ، فالتفتت من الدجاجات إليه ووجدته غارقاً في مرآته المكسورة التي أخذها منه توفيق في تلك اللحظة ، وهو يقول له :

- إنها مكسورة .. ستجرحك!

بكي يحيا وتشبث بها ، فقالت له هنية :

- لا فائدة .. عناده كعناد الخنفسان .. سألفها له بقطعة قماش لكي لا تجرحه .

فضحك يحيا وطابت نفسه ومد يديه لهنية زوجة أبيه التي كان يحبها أكثر من أمه ، حتى تحمله من على الأرض بعيداً عن توفيق .

كان توفيق هذا ما أن يعود من المدرسة حتى يجلس في الحديقة ويغني بينما أخوته الثلاثة ، صلاح وفلاح ونجاح في أعمالهم .. أمه هنية ، ضرة بلقيس أم يحيا ، هي التي نصحتها ، بعد أن مات أبوه منصور ، بأن تعيش معها وتترك

يحيا في رعايتها وتعود إلى العمل ، فوافقت بلقيس وقالت :
- في بيتك هذا وضعت دبوساً في شمعة من شموع
صينية زكريا ، وطلبتُ يحيا من الله . . فكيف لا أعيش معك
وأنت لي كالأخت للأخت؟

قالت هنية :

- ألف رحمة ونور تنزل على روحك يا منصور . . تركت لنا
سقفاً يؤوينا ، أما الجوع فمقدور عليه .
ثم مضت الأشهر عجافاً ، وأصبح معجون الطماطم يباع
في قوارير زجاجية سعر الواحدة منها يصل إلى مئات الدنانير ،
فقلعت هنية الورود في حديقتها ونثرت بدلها بذور الفلفل
والطماطم ، ثم وضعت في وسط الحديقة خيال مائة ليخيف
العصافير و يذود عن بذورها التي لم تنبت قط . وهنية عندما
انتهت من إطعام دجاجتها وأدخلتها إلى القفص غمّت خيال
المائة هذا بيديها وقالت له :

- طاح حظك . . من عابت هيج لعبة خُضرة .

ارتطمت يدها برأسه ، وكادت كرة القدم الملقوفة بحرق
بالية ان تسقط إلى الأرض ، ابتسم يحيا ومد كلتا يديه لبلقيس
التي عادت لتوها من العمل ، وهي الوحيدة التي يتنازل لها
يحيا عن مرآته ، لأنها تهدده بكسرها إذا ما امتنع عن الامتثال
لأوامرها .

أحياناً يطيب لتوفيق أن يقرأ القرآن بصوت عال وقت

الظهيرة ، أو ينضم إلى المؤذن وهو يعلو بالأذان من جامع قريب ، فتلسعه معدته من الجوع ، ويتمرغ أنفه برائحة الباذنجان المقلي تطبخه بلقيس أم يحيى ريثما تنتهي أمه هنية من تقطيع عجبن الخبز وسجره في التنور . . . وتلك لحظات كان توفيق يتمنى لو أنها لا تنتهي . . . وأن يشربها كالماء البارد بعد العطش قبل أن يجيء أخوته صلاح وفلاح ونجاح من العمل فيمتلئ البيت رعباً في عينيه وتعيث به أصواتهم صخباً وشتائم . توفيق إذا ما صاقت الدنيا بعينه يصعد إلى السطح لعل (ملائكة) تصعد إليه أيضاً فيبصرها جالسة وقد غيرت ملابس المدرسة بملابس البيت . . . تتجاهله عن عمد وهي تعلم بلا شك أنه في مكان ما ينظر إليها ويبتسم . وأحياناً تمر غيمة بيضاء من فوقها فتحجب شمس الخريف الخدرانة ، وتطفئ الضوء عن الحديقة ، فيذوب قلب توفيق ويصير ماءً ، ويدور رأسه ويصير هواءً ، وينتقل الصمت بأكمله من الكون إلى الحديقة وينتقل الورد بأكمله من الحديقة إلى الكون . . . يصير السطح جنة عندما تصعد ملائكة ، فإذا ما خرج أبوها عبد الملك إلى الحديقة غابت الملائكة وهجت ، وحل محل الصمت ضجيج وسعال وشياطين .

جاءت له أمه بقرص من الخبز الحار وقالت له كله ريثما يجهز الغذاء ، فراح يقرأ المقام ويغني :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارة لو تشعرين بحالي

أيا جارة ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم

تعالي

ناي أخت ملائكة طرقت الباب بعد قليل طلباً للخبز ، ثم دخلت وقت العصر ومشت تحت دالية العنب . . وظلت تمشي وتمشي وتمشي وتمشي . . إلى أن أصبح عمر يحييا خمس سنوات ، وبلقيس خمسة وثلاثين ، وهنية ستاً وخمسين .
قالت لها (ناي) :

- ألا زلت تخبزين يا خالة؟

فقالت هنية نعم ، وأخرجت ركبته وراحت تنن :

- إنها تؤلمني . . الروماتيز سوف يقتلني .

قالت ناي ليحيا :

- ألا زالت هذه المرأة معك؟

ضحكت بلقيس وقالت :

- انكسرت من زمان ، فلففناها له بضماد .

تجاهل يحييا صوت المرأتين ثم أخرج لسانه للهواء وتمتم

بأصوات غير مفهومة ، فقالت ناي :

- المسكين بعده أخرس .

فقالت بلقيس :

- سقيته فوح التمن ودرتُ به على الشيوخ والأولياء

الصالحين ، ويوم أمس فقط أخذته إلى شريعة النهر في خضر

إلياس ، ومن هناك إلى عين ماء علي في جامع براثا . . يقولون

إنها تشفي الأطفال من الخرس .

- ترى لماذا تأخر إذن في الكلام؟

فقلت بلقيس :

- أَرْضَعْتَهُ لِبْنِي وَأَنَا مَغْثُوثَةٌ . . يَقُولُونَ إِنَّ هَذَا هُوَ السَّبَبُ .
أَدَارُ يَحْيَا لِهَمَا ظَهْرَهُ ثُمَّ رَفَعَ الْمَرْأَةَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَتَشَاءَبَ ،
فَانْغَلَقَتْ عَيْنَاهُ بِقُوَّةٍ ثُمَّ انْفَتَحَتْهَا وَظَلَّ يَنْظُرُ وَيَنْظُرُ وَيَنْظُرُ وَيَبْتَسِمُ
إِلَى أَنْ خَرَجَتْ (نَاي) وَمَعَهَا أَقْرَاصُ الْخُبْزِ الَّتِي ، بِالرَّغْمِ مِنْ
لَوْنِهِ الْأَسْوَدِ ، كَانَتْ تَعْطِي مِنْهُ رَائِحَةَ طَيِّبَةٍ . قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى
الْبَابِ صَاحَتْ بِهَا بَلْقَيْسُ فَجَاءَتْ وَقَالَتْ :

- انظري يا ناي .

فالتفتت ناي إلى يحييا ، والتفتت يحييا إلى بلقيس ،
والتفتت بلقيس إلى التلفزيون ، وفيه وجدوا كيككة عملاقة
غرقى بالفستق الأخضر ومصنوعة على شكل شجرة ،
والأطفال من حولها يرتدون ملابس زاهية ويغنون (هابي بيرث
داي تو يو . . هابي بيرث داي يا مناصل . . هابي بيرث داي تو
يو) . . الكيككة تلك المخلوقة العجيبة تجلس في مكان كبير بين
الأطفال الذين يرقصون بينما يحييا ينظر اليهم وقد نامت المرأة
بين يديه .

ما أكبر هذه الكيككة . . ما أعجب هذه الكيككة . . قالت
ناي ثم خرجت وسارت تحت دالية العنب فالتقاها توفيق الذي
كان عائداً لتوه من المعهد فظنها (ليلك) التي زجرها منذ

عامين ، وهي أيضاً ظنته (صلاح) الذي هاجر إلى الداغمارك قبل أشهر ، فجفل كل منهما عندما رأى الآخر . . . واشتد هرج العصافير بين أغصان السدرة العملاقة لأن الشمس كانت توشك على الغروب .

ناي وملائكة وليلك هن بنات الفنان عبد الملك وأبوهم قال ذات يوم إن الأسماء كالعتبات والجبهات نحسُّ وسعدُّ على أصحابها وعلى الآخرين ، وقال أيضاً إن الأسماء المعتبرة لا يبتكرها العوام من الناس ، وإنما يسعفنا بها عليّة القوم ، فيلتقطها الجمهور ويتداولها إلى أن تبهت وتعتق وتصبح كاللماسح المهترئة من كثرة ما تستعملها الألسن ، ثم يجئ آخرون وابتكرون غيرها فيسبقون غيرهم في امتطاء الصهوات ويتركون العجاج للآخرين . . . قال أيضاً على سبيل المثال لا الحصر إن أسماء مثل عالية ونازلي وصباح وفرح وهلا وحلا ، هي ابتكارات لم يكن لها سميٌّ بين عامة الناس قبل أن يعرفوها من الملك والشاه والعاهل والخديوي ورئيس الوزراء ولولاهم ما شاعت وتداولتها الألسن .

قالت ناي لتوفيق :

- متى عدت من السفر؟

قال :

- لم أسافر قط .

قالت :

- من سافر إذن؟

قال :

- صلاح .

قالت :

- وأين هو الآن؟

قال : في الداغمارك .

فقالت ناي :

- ما الحكاية؟ أكل واحد في العراق عنده أخ بالداغمارك؟

أخبرها توفيق بأن تآقت أنفس كل من صلاح ونجاح وفلاح إلى الطيران بعيداً عن العرش بعد أن ملّ أولهم من بيع الملابس الداخلية على الرصيف ، وثانيهم من قيادة السيارات من المنفاخ إلى عتلة الرفع ، وثالثهم من عرض البلابل في سوق الغزل . . فطاروا وخطوا في بلاد الله البعيدة ما عداه وعدا أخاه يحيا ، طائع الأرض الذي أخذته أمه بلقىس يوم أمس إلى عين ماء في جامع براثا يقولون إنها تشفي الأطفال من الخرس ، ونصبت له اليوم صينية زكريا كما في مثل هذا اليوم من كل عام ، ومنذ اليوم الذي طلبت فيه يحيا من الله في يوم زكريا قبل خمسة أعوام .

ولما كان البيت قد أمحل ، ولم تجد أمه ما تضعه في صينية الزكريا سوى قليل من ورق الياس وإبريقه الفخاري القديم الذي زرعت في فمه حفنة من الشعير ، فقد جاءت لتوفيق الذي عاد إلى الغناء ، بعد أن ذهبت ناي ، وقالت له وهي تحمل بيدها

ورق العنب :

- هلا ذهبت إلى بيت أبو ملائكة وملاّت لنا هذا
الاستكان سكرأً .

فرفض وقال :

- اشربوا الشاي مرأً . ناي كانت توأً هنا ، لماذا لم تطلبي

منها ذلك ؟

فقالت :

- إنه من أجل أن أرشه على الخبز وأضعه في الصينية
بدلاً من الحلوى ولهوم السمسم .

قال :

- لن أذهب .

فاختنقت بلقيس بالعبرات ، ونزلت دموعها على ورق
الياس ، وحدثت المعجزة التي لم يصدقها يحيا قط ، حتى وهو
يشاهدها تحدث أمام عينيه . فقد رأى طائع الأرض وسليل الماء
عود الياس وهو يرتوي من دموعها الغزيرة ، و يتحول من غصن
صغير إلى أيقة عملاقة تلتف حولها أغصان هائلة من الفستق
الأخضر ، وعندما همت بلقيس بالصعود إليها شهق يحيا من
الخوف وسمع بلقيس تقول :

- هيا تعال . . بإمكانك الآن أن تصعد .

فنطق للمرة الأولى في حياته قائلاً وهو ينظر بخوف إلى

هنية ليستنجد بها :

- بيبي .

هلهمت هنية ، وهبطت بلقيس من القمرية وبيدها عنقود
عنب أخضر لمحته معلقاً بين الأغصان كالثرى بالرغم من أن
الوقت كان خريفاً ، فصعدت إليه وقطعته وقدمته إلى يحيى ،
وقالت وهي تبكي :

- الحمد لله الذي لم يذكرك يا يحيى حزناً لا تستطيع

الكلام .

كانت بلقيس صائمة في يوم زكريا ، فأفطرت على ماء بئر
وخبز شعير وتلت سورة مريم من القرآن الكريم ورفعت الشكر
إلى الله العلي القدير . ونسيت هنية التي كانت أول من ناداها
يحيى ، وقال لها (بيبي) ، روماتيزها الحاد ووضعت يحيى على
ظهرها وراحت تدور به وهي تضحك في أركان الحديقة ، فتطير
الدجاج من حولها في كل ركن من أركان الحديقة ، وسقط
خيال المائة من شدة العصف . وفي اليوم التالي نفضت هنية
كونية طحين الحصة عن بكرة أبيها ، وخبزت أقراصاً من الخبز
لفتها بلقيس بالنعناع والكرات والريحان والرشاد والمعدنوس
ووزعتها على بيوت الجيران وبنات البدالة ، وكلما سألتها أحد
عن مناسبة خبز العباس هذا قالت بلقيس وهي تسرح بنظرها
إلى بعيد إنها نذرت يحيى من الله في يوم زكريا ، ثم جاءها
المخاض وحيدة في البيت والقصف شديد ، وولدت في الثامن
والعشرين من كانون الثاني من عام الضربة الكبرى ، ومات أبوه

في الحرب بعد مولده بيوم واحد ، فلما كبر يحييا وهو لا يستطيع الكلام ، وضعت بلقيس شمعة على كربةٍ من كرب النخل وطوّفتها على نهر دجلة ودفعتها إلى بعيد ، فبادلها النهر نذراً بشري ، ونطق يحييا في الخامسة من عمره بعد خرّس .

يتمتم وبصارع الكلام الخامسة أعوام مضت ، حتى جاء ذلك اليوم الذي أخذته فيه إلى خضر الياس على نهر دجلة ، وسقته من عين ماء علي في جامع براتا ، وبعد ذلك اليوم بيوم واحد فقط صعدت إلى القمرية لتقطف له عنقوداً من العنب تضعه له في صينية زكريا ، وما أن نزلت بالعنقود الأخضر الضاوي ، حتى شهق يحييا وانفكّت عنه كبسة الخرّس .

هذه القصة ظلت بلقيس تعيدها وتزيد عليها كلما سألها أحد عن لسان يحييا : هل انفكت عقده؟ . . وعلى المسامع نفسها كانت تعيد وتزيد وتعيد وتزيد ، ثم قبل أن تسكت تنتهي إلى القول وهي تتنهد :

- ولو بيتنا قريب كان جبلكم طبق حمص وطبق زبيب .

(٣)

كانت ملائكة تعبر كل يوم ساحة عنتره بن شداد متجهة إلى راس الحواش ، ثم تدلف إلى كلية العلوم من بابها المطل على شارع الإمام الأعظم ، وهي تفكر في جارهم الفتى المجنون توفيق الذي تراه كل يوم من شرفة نافذتها يكوم ورقاً يقرأه بصوت عال ثم يحرقه بعود ثقاب .

كان توفيق ينظر إلى نافذتها وهو يقرأ . . . وبالكاد تلتقط جملاً تفهم منها كلمات عن الانتحار والدهس والحرق وأشياء أخرى من هذا القبيل . وقد قال عنه والدها عبد الملك ذات يوم إنه يضع في محفظته صورة عمه المجنون ، وإن حسب هذا العم جنوناً أن تزوج ست مرات ، وتوفيق لا بد أن يتطابق معه في نهاية الأمر ، إذا ما ظل ينظر إلى الصورة باستمرار .

ملائكة هذه تحب القلط كثيراً وتتحدث معها باستمرار وتقول ما دامت تسمع وتنظر فهي تفهم . وعندما رآها توفيق ذات يوم واقفة تنتظر سيارة الخط والقطة تتمسح بقدميها قال لها :

- حذار . . فالقطط تطرد الملائكة .

ولم تفهم ملائكة قصد ذلك الفتى المجنون كما هي لم

تسمع منه في يوم من الأيام كلاماً جاداً حول أي شيء سوى أنه كان ينظر إليها بوله وبيتسم ، أو يفتح فمه بفتور وكأنه يوشك أن يقول لها كلاماً ، ولكنه لم يقله قط . المرة الوحيدة التي سمعت فيها منه غزلاً كانت حين قال لها :

- أسنانك هذه سأقلعها ذات يوم وأخذها إلى الجواهري ليصنع منها قلادة من اللؤلؤ .

خافت منه ملائكة بقدر ما توردت . وأصبحت بعد ذلك تفكر جدياً في احتمال أن يكون مصاباً بالجنون . . ولكنها لم تستطع قط أن تمنع نفسها من أن تحلم به وتتخيله حبیباً لها وتستحضره في منامها .

كل يوم قبل أن تغمض جفنيها وتنام . . يتجمع الكثير من الفتيان الذين تلتقيهم في الطريق حول سريرها ويمرون من أمام عينيها كعارضات الأزياء في حفل بهيج ، ثم يسرون ويخرجون من باب الغرفة الواحد بعد الآخر إلا توفيق ، فإنه يبقى ناظراً إليها في حفل كبير مبتسماً ابتسامته التي لا تنتهي ، ثم داعياً إياها للرقص في منتصف الليل .

- تسمحين لي بهذه الرقصة؟

ثم تختلف المشاهد من ليلة إلى أخرى تبعاً لتطور الأحداث وتلاطمها . . فتارة تستجيب لدعوته وتصيح بين أحضانها في لحظات ، وليلة أخرى تخجل فترفض وتتركه ليذهب للرقص مع فتاة أخرى ، وليلة ثالثة تفتعل شجاراً معه

لأنه تركها ورقص مع فتاة أخرى ، وليلة رابعة يأتي ويصالحها ، فترفض في ليلة خامسة ، وتقبل في ليلة سادسة وتبكي في ليلة سابعة وثامنة وتاسعة .

ولأنها علمت يوماً من بلقيس أن توفيق أصبح يعمل بعد رجوعه من المعهد في مشتل لبيع الحمضيات والنفصيات والنباتات الظلية وفسائل النخيل وزهور الزينة ، فقد تحول مكان الحفل في أحلامها إلى بستان مشمس تمشي فيه وتوفيق لوحدهما وثمة طريق ترابي تحف به أشجار التفاح من الجانبين وهما يطويانه ببطء ولا تنتهي الطريق .

في الليلة الأولى تكون بينهما ساقية لا ماء فيها . . فتمشي على ضفة الساقية اليمنى وهو على ضفتها اليسرى ، وفي الليلة الثانية يعبر توفيق الساقية فيصبح الاثنان على ضفة واحدة ، وفي الليلة الثالثة يمك يدها بيديه فيتسرب إلى قلبها تيار كهربائي ، وفي الليلة الرابعة يقطف لها تفاحة حمراء شهية ، فتبتسم بخجل ، وفي الليلة الخامسة يقبل التفاحة ويقدمها إليها ، ثم يبدأ الليل بالهبوط ، وتحكم الظلمة ستائرهما حول المكان فيصبح البستان موحشاً والفتى توفيق ممسوساً ، فتهرب منه خائفة إلى مكان غير محدد ، ولكنها تسقط في الساقية ، فتفز من نومها مذعورة ، ثم تعاود ملائكة النوم من جديد .

(٤)

وفي يوم من الأيام وبينما كان عبد الملك يدخل إلى بدالة الشعب التي تعمل فيها بلقيس تراءت له ماجدة الرومي التي تحبها حباً جماً واقفة في المكان الذي تقف فيه بلقيس ، بينما أحاطت الحسنات بعمر و ذياب وهو يقف قرب منتهى ويغني (حبيبي يا نور العين يا ساكن خيالي) ، فابتسم عبد الملك ودفع الباب الزجاجية إلى أقصاها ، ليجد البخار يتصاعد من أباريق الماء ورائحة الشاي الخدران تتصوع من مكتب لآخر في غمامة سبح في لجتها خيال الفنان ، فقال وهو يتوقف عند المكان الذي تقف فيه بلقيس ، ويضع يده قريبا من المذيع : يا ليتنا تبخر بعد أن نموت فلا يعبث بنا الدود ولا يدب إلينا الفساد .

صمت بلقيس ولم تجبه ، فاستطرد وقال :

- مثل البنزين . . نتلاشى في الهواء الطلق .

قالت :

- أحب رائحة البنزين ، ورائحة الأسيون .

قال :

- ألا تجد فكرة التبخر جميلة إذن . لولا أنها تحتاج أن

نكون أخف ما نحن عليه ككائنات .

قالت :

- الموت واحد .

فقال لها :

- هذه إشاعة .

ثم شك في سماعه ما قالت ، فقال :

- ماذا قلت؟ الخط بليون واحد؟

ضحكت وقالت :

- سعر خط الهاتف ليس مليوناً . . بل ربع مليون .

- وأنا أريد أن أبيع .

المصور الشمسي ، الذي عاد إلى الوقوف في بوابات الدوائر التي يقصدها الناس لاستخراج شهادات الجنسية وهويات الأحوال المدنية ، التقط صورة للفنان عبد الملك بعد خروجه من البداله وثبت عليها تاريخ اليوم لسبب غير معروف ، ثم قال لعبد الملك :

- عندك معاملة؟

قال عبد الملك :

- بل أحتاجها لأسباب فنية .

قال المصور :

- كنت أعمل في الباب المعظم . . قرب الدفاع . . وياما رأيت الفنانين يمرون من هناك بملابسهم الغريبة ، وأخذتهم

الممسوحة ، ولكن الحق يقال أنهم ينتقونها من اللنكات بعناية فائقة ، فكنت أستطيع التخمين من نظرة واحدة أن هذا الرجل مخرج والآخر رسام أو ممثل . .

ضحك عبد الملك وقال :

- ولكنني أرتدي بدلة جديدة كما ترى .

فقال المصور الشمسي :

- ولهذا لم أتوقع أن تكون فناً .

لم يرتح عبد الملك لهذا الخلط المزعج بين الشتيمة والمديح

في كلام المصور ، فقال بعصبية وهو يقلب الصورة بين يديه :

- لكن لماذا وضعت تاريخاً عليها . . لماذا وضعت تاريخ

اليوم على الصورة؟

فقال :

- لا أدري إن كان هذا يوم سعدك ، أم يوم نحسك .

قال عبد الملك :

- هل أنت مصوّر أم فتّاح فال؟

فقال المصور ، وكان وجهه الأسمر الكالح شبيهاً بصورة

شمسية :

- ذات يوم وضعت تاريخاً لليوم الذي التقطت فيه صورة

شمسية لرجل عجوز كان مسنّاً إلى درجة أنني استغربت معها

ماذا يفعل بتلك الصورة ولماذا يلتقطها؟ وفي ذلك اليوم ، وبعد

أن نهض الرجل من أمام الكاميرا نزل عن الرصيف إلى الشارع

فدهسته سيارة ومات .

قال الفنان بامتعاض :

- أعود بالله ..

قال المصور الشمسي :

- كانت مصادفة عجيبة . ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أستطيع

أن أمنع نفسي من وضع تاريخ اليوم على كل صورة ألتقطها

لأرى ماذا سيحدث بعد ذلك .

قال الفنان :

- وهل تكرر هذا الأمر ثانية .

فقال المصور وهو يبتسم ، فتظهر أسنانه المتهدمة :

- لحد الآن ، لا .

فقال الفنان :

- إذن لا تخبر أحداً بعد ذلك بقصتك اللعينة هذه ..

لأنك عندئذ لن تجد زبائن يقصدونك .

قال المصور وهو يضحك :

- لم أخبر أحداً غيرك .. لأنك الوحيد الذي سأل .

ابتعد عبد الملك قاصداً باب البدالة ، فقال له المصور :

- كنت أمزح ، فأنت رجل تبدو بسبع أرواح .

فالتفت إليه عبد الملك وقال :

- أنت أحمق .. أم بك سوء تغذية؟

فراح المصور يضحك حتى كاد يختنق من الضحك

والسعال ، فقال له عبد الملك :

- إلى جهنم .

خرافات . . وليس بالأمر الجديد أن يتذكر عبد الملك شخصاً غريب الأطوار مثل أستاذه في الاكاديميه الذي كان سينظر إلى المصور الشمسي ذاك باعجاب فيلتقطه من الشارع ويضعه على الورق لمسرحية قادمة ، أو يدخله إلى أدراج الذاكرة لحين مجيء أوان فتحها للبحث عن تفصيل صغير ضروري لملء الفراغ في لوحة كبيرة إطارها واسع . وليس بالأمر الجديد أيضاً أن يسأل عبد الملك نفسه قبل كل مسرحية وبعد أن يكتبها : لماذا يخون الحياة وأبطالها ، ويجرد الحقيقيين منهم من بطولاتهم الفذة عندما يضع واحداً منهم فقط ، ولجهد أنه يعرفه ، على تعريشة عالية ، ويجعله يتدلى منها كالعنقود الذي لا يذبل ولا يموت؟ وكيف يذبل أو يموت مثلما يحدث في الحياة ، وهو مصنوع من البلاستيك ، ومقصود لكي يكون فرجة للعالمين؟ . . كل عنقود عال وكل قمر عال وكل نجم عال وكل كوكب عال ، حتى وإن كان هذا الكوكب أم كلثوم بعظيم قدرها ، ليس هو الأكثر أهمية ، لأننا نراه ، أو لأنه أعلن عن نفسه ملياً ، من بين عشرات وملايين النجوم والكواكب والعناقيد الضوئية التي توجد حولنا ، ولا نراها . . ثمة أقمار حقيقية هي الأخرى ، ولكنها لا تريد أن نراها ، أو أنها تريد أن نراها ولا تقدر ، فتحيا دون أن نراها ، ثم تموت دون أن نراها ،

بينما البطل الذي اختاره الفنان يتحول إلى خرافة لا تموت .
عبد الملك هذا يسكن البيت الذي يجاور البيت الذي
انتقلت إليه بلقيس ووحيدها يحيا للسكن مع هنية وأولادها .
وعلى السياج الذي يفصل بين البيتين يوجد هاون نحاسي
صغير كلما رآه عبد الملك يتخيل أنه يتشمم رائحة الهيل .
الهاون النحاسي الصغير موضوع على سياج البيت باستمرار
ويشبه جرس المدرسة .. وياما تمنى عبد الملك أن يقلبه ، ثم
يضع له مقبضاً خشبياً ويقرعه كما كان يفعل مراقب
الصف أيام المدرسة ، فكان عبد الملك يحسده على مهمته في
قرع الجرس الذي ما كان لأحد سواه ان يقرعه ، ليس لأنه
أكبرهم وأعقلهم وأطولهم وأكثرهم شطارة ، ولكن لان تلك
المهمة السامية قد جعلته يبدو مختلفاً عنهم فاعتقدوه أكبرهم
وأعقلهم وأطولهم وأكثرهم شطارة ولو نسي عبد الملك أيام
عمره كلها ما نسي اليوم الذي غاب فيه فؤاد مراقب الصف عن
المدرسة ، فكلفه الحاج مؤيد ، مدرس اللغة العربية بأن يذهب
ليقرع الجرس بدلاً عنه ، فهبط عبد الملك إلى باحة المدرسة
مسرعاً وهو لا يتوقف عن الابتسام قط حتى سيتذكر العمر كله
ذلك الهبوط وكأنه ذاهب إلى فردوس .

كان في رواح ومجيء بين الباب والباب حاملاً القفل
والمفتاح كما يفعل كل يوم قبل أن ينام . . فلمح من سياج
الحديقة الواطئ بلقيس وهي تروي شجرة الياس بالماء . . تسمّر

في مكانه وظل يواصل النظر إليها . . ويواصل النظر إليها من
خلف السياج ، ثم دخل إلى البيت وجاء بورقة كان قد كتبها
بعد خروجه من البدالة في الصباح ونادى إلى بلقيس قائلاً :
- هذه الورقة لك . .

فاستغربت أن يناديها وشعرت بالخرج ان تنظر اليه ،
ولاحظت أن يده اليمنى المسكة بالورقة كانت مبتورة الخنصر ،
فارتجفت يدها وهي تأخذ الورقة من خلف السياج على عجل
وقالت :

- ما هذه؟

فقال :

- اقرئها .

في اليوم الذي تلا ذلك اليوم عادت بلقيس إلى بيتها من الدائرة مشياً على الأقدام بدلاً من أن تعود بسيارة الخط ، وهذا ما كانت تفعله دائماً كلما تاقت نفسها إلى أن يبادلها الكون شوقاً بإذن صاغية ، فكانت تمر على محال الكماليات والعطور وأدوات الزينة لتتفرج عليها ، ثم تعرج على متجر يجاورها يبيع الثريات والمصابيح والمزهريات والتحف المنزلية . وعند واجهة ذلك المتجر الزجاجية توقفت كما كانت تتوقف طويلاً لتنظر إلى إناء دائري مصنوع من الكرستال المذهب ويُستعمل ، فيما ظنت ، لتقديم الحلوى للضيوف . . تشعر وهي تنظر إليه أنه ملكها وأنها تستمتع به طالما تنظر إليه ، فكأنه ينتظرها لكي تشبع من النظر إليه ولا يغادر تلك الواجهة قط إلى يد تشتريه غير يدها . في ذلك اليوم الذي شعرت فيه بلقيس بالسعادة وجدت ذلك الإناء المذهب في مكانه المعتاد يبرق بجمال أخاذ ويدعوها إلى النظر إليه قدر ما تستطيع وربما يدعوها في هذه المرة إلى تفحصه ملياً ، كما يفعل المشترون عادة من ذوي الثقة المفرطة بالنفس ، أو العابرون من أصحاب القلوب السعيدة . . وهي أيضاً كانت سعيدة في ذلك اليوم إلى درجة أنها تجرأت

على دفع باب المتجر ، والنظر إلى البائع الذي كان وحيداً ،
وقالت بصوت مرح :

- بكم هذا الماعون؟

رفع نظره إليها دون أن ينظر إلى الماعون ، وقال :

- أي ماعون؟

فوجدت الفرصة عظيمة لكي تمد يدها إليه وربما تلمسه عن
قرب بحجة وجوب الإشارة . قالت :

- هذا .

قال البائع دون أن ينظر إليه :

- المزين بالشذر؟ هذا منفضة سكاثر .

ارتدت يدها عن الماعون ولم تكرر سؤالها عن السعر ، وإنما

اكتفت برد الباب على مهل وهي تقول للبائع :

- شكراً .

أغلقت الباب وظلت واقفة أمام الواجهة لتنظر إلى تلك
الآنية الرائعة التي لم يقلل من شأنها أن تكون منفضة
للسكاثر ، ولكن تلك المفاجأة جعلتها تشعر أمام الباب أنها
تجاوزت حدها قليلاً في السؤال عن شيء لا تعرفه لمجرد أنه
أعجبها ، أو أنها أحبته أو تآقت في أحلامها للحصول عليه .

بعد دقائق وجدت نفسها تمشي بين المشاتل والبساتين
التي تشاطئ دجلة من جهة الرصافة ، وتشم عذوبة العشب
المبلل ، وتتذوق طعم الهواء الطلق يسبح تحت قميصها

الفضفاض ، ثم ينشر عطر الياسمين من ملابسها المهفهفة إلى الفضاء . طاب لها أن تدخل إلى بيوت النباتات الظلية المسقوفة بالنايلون وأن تتشبع بدفء أنفاسها وهي تديم النسخ وتنتج بخضورها في جذوة الضوء الشحيح ورطوبة الهواء الحميم . داخل تلك البيوت التي تشبه الحمامات في سخونتها كانت النباتات تتنفس من أوراق تتعرق بخار الماء ، وجذور لازبة في طين الأصص تحمّل حرير الأيام إلى رائحة عفن خفيفة تستنشقها بلقيس وهي تمضي من بيت زجاجي إلى بيت زجاجي آخر . .

طوال الوقت وهي تسأل عن السرخس والصبّار واللبّاب وقدم البط وإذن الفيل ولسان الطير وجلد النمر ومخلّب القط وعرف الديك ودمعة الطفل وإبرة آدم والشمشار والبزرنكوش والعطرة والجوري والقرنفل والجربة وعيون البزون والأستر والشبوي والهيدرا والجورانيوم والكاردينيا . واكتشفت في نهاية ساعة من المشي داخل البيوت الزجاجية وخارجها أن تنورتها السوداء الوحيدة قد ابتل ذيلها بالماء ، وأن حذاءها الأسود الوحيد قد اتسخ بالوحل ، ولكنها كانت سعيدة للغاية إلى درجة أنها ضحكت مع نفسها ، فخجلت من سعادتها وقالت : «ضحكة خير وشرها على إبليس» .

وصلت إلى البيت بعد ثلاثة أشهر من الربيع وهي تحدث نفسها بحبور ، وعندما دخلت إليه خلعت حذاءها الموحد

خارجة على عجل وجلست على سريرها تنظر إلى قدميها الحافيتين ، وتذكر كيف كان منصور يقبل أطراف أصابعها ، ويضع الحذاء في قدميها عندما كان يتعذر عليها أن تفعل ذلك بنفسها في أشهر حملها الأخيرة ببحيا . وها هي تعود راجلة بصحبة شبح رجل آخر تيقنت من أن كل الناس قد رأته يمشي معها عندما قال لها توفيق :

- رأيتك تمشين قريباً من المشاتل ، وناديتك فلم

تسمعي .

فقالت بلقيس لعله رآها سعيدة تحدث الشبح الذي كان يمشي معها ، واختلط عليها الأمر ، فكادت تصدق أنها لم تكن تمشي وحدها ، ثم انقسمت بلقيس إلى نصفين . . نصف انتعل الخف المنزلي وذهب إلى المطبخ ، ونصف بقي حافياً وهو ينظر إلى مرآة مكسورة وابتسم . ومر عام كامل بعد ذلك اليوم والنصفان لا يتحدان . . نصف يقف خلف حوض الغسيل وماء الحنفية ينهمر على الصحون ، ونصف يرسل نظره من النافذة إلى الحديقة وأشجارها القريبة من السياج المحاذي لبيت الفنان . يحيا الذي كان قد افتقد المرأة المكسورة منذ شهور شهق وذاب عندما رآها في حقيبة أمه ثم بكى طلباً للمرأة ، ولما رفضت أمه قال لها : «سأعد من الواحد للمئة إذا أعطيتني المرأة» ، ثم عد من الواحد إلى العشرين وشهقت بلقيس من الدهشة وقالت :

- متى تعلمت ذلك؟

وكادت تبكي لأنها لم تكن تعلم ماذا يعرف يحييا ، وقالت

له :

- خذها حبيبي .

فنظر يحييا إلى نفسه وقال : «هذا أنا . . يحييا» ، ثم قال دون

أن يضحك :

- كم أنا جميل يا أمي .

فقالت له أمه :

- طبعاً أنت جميل يا يحييا .

وظل ينظر إلى نفسه دون أن يبتسم . وكادت حافة المرأة

تجرح يديه . فقالت أمه :

- سألفها مرة أخرى بقطعة من القماش .

ثم جلست على السجادة نفسها التي ولدت يحييا عليها

قبل سنوات ، والتي تسمى سجادة الفصول الأربعة ، وبسطت

ذراعيها ليحييا وقالت :

- ها أنا ألفتها لك . . فهيا عد من الواحد إلى المئة .

(٦)

في الفترة الواقعة بين عام المتربة وعام المسغبة ، أي بين عام الطحين الأسود وعام سامكو الزعفراني ، تخرج توفيق من معهد السياحة والفندقة ، وفي لحظة روقان وقت الضحى من يوم جمعة ، عندما كان يجلس في الحديقة يقرأ المقام ، وعيناه ترنوان إلى ورقة يكتب فيها بعض الكلمات ، ثم يشطبها ، وقفت شاكرين أمامه وقالت له :

- تشوف عمو بابا بالتلفزيون .

فقال لها بلا انتباه :

- لا .

فقالت شاكرين :

- عمو بابا بالتلفزيون .

فنفخ توفيق الهواء عاصفاً من رثتيه وقال لها :

- اذهبي والعبي مع ذلك .

ثم أشار إلى خيال المائة الذي لم يكن قد تبقى من أهابه سوى

كرة القدم المفعوصة وعيدان يابسة كانت فيما مضى جذعاً لشجرة

عرموط . التفتت شاكرين إلى حيث أشار بسبابته التي ارتفعت

قليلاً عن القلم ، ولما وجدته يقصد خيال المائة انتفضت وقالت :

- عمو بابا في التلفزيون .
 - فصاح بها صيحة جبارة :
 - لا تظلين تنظنين .. خليني أقرأ مقام .
- وراح يغني :

معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى

ولا خطرت منك الهموم ببالي

أيضحك مأسور وتبكي طليقة

ويشدو مهموم ويندب سالي

لقد كنت أولى بالدمع منك مقلة

لكن دمعي في الحوادث غالي

فدخلت شاكرين المطبخ إلى أمها تبكي . . وقرر توفيق في

تلك اللحظة ، وبعد لحظات متباعدة من التفكير في هذا الأمر أن

يعمل مديعاً في التلفزيون ، ومن أجل ذلك توسط عند عبد الملك

الفنان لكي يجد له مكاناً في الإذاعة ، فأعطاه موعداً للمقابلة

ونجح توفيق في الاختبار بدون الحاجة إلى توصية ، ثم قفز إلى

الشاشة في غضون أيام ، ونظر إلى أصبع المخرج فارتبكت أنفاسه

وارتجف قلبه ، فسأله المخرج أين كان يعمل قبل أن يأتي للعمل في

التلفزيون؟ فقال توفيق إنه كان يعمل في مشتل يبيع الزهور

والنباتات الظلية ، فنصحه المخرج ذو اللحية البيضاء أن يتخيل

الكاميرا سندانة من سنادين الورد ، فلا يخجل منها . . فتخيلها

توفيق مدفأة نفطية وتخيل أصبع المخرج عود كبريت فاحمرت

الدنيا في عينيه واشتعل وجهه من الحر .

(٧)

وراح يوم وجاء يوم ووقف توفيق بباب ملائكة يطلب شمعة قائلاً إن النفط نفذ من اللالة وأن شاكرين تخاف كثيراً من الظلام . . ولم يكن أبو ملائكة الفنان موجوداً في البيت ، فدعته ملائكة إلى الدخول ووقفت أمامه في المرآب المظلم ، ثم أشعلت عود الكبريت وقربته من فتيل الشمعة فتشبث بيدها في الظلام وأطفأ نار العود ، ثم سحبها وضمها إلى صدره بقوة . ووجدت ملائكة هذا الحلم أكثر واقعية من حلم الحفلة الراقصة وأقل ترويعاً من حلم البستان ، ففي الحلم الأول كانت تجد صعوبة في أن تجعله يحتضنها بدون أن تبكي أو تتشاجر معه ، وفي الحلم الثاني كان الخوف يملكها من الظلام الدامس ومن الطريق الترابية الطويلة فتفكر في الهروب وتخاف من السقوط في السواقي .

صاحت ليلى :

- «تعالى» .

فقال ملائكة :

- «ماذا؟ هل بدأت الحسنة والوحش؟» .

فقال ليلى :

- «إنه توفيق ابن خالة هنية» .

نفضت ملائكة الحلم من رأسها ، ونفضت يديها من الماء والصابون ، وهولت إلى غرفة المعيشة ، فهالها ما رأت ولم تصدق عينيها لحظة أن سقط نظرها على توفيق وهو يرتدي بدلة أنيقة وربطة عنق ويذيع نشرة أخبار الساعة العاشرة . ولأنه كان وسيماً جداً لم تفرح لذلك ، بل اغتمت وشعرت أن فتى أحلامها سيضيع منها ، ويصبح فتى أحلام الجميع .

تمنت له العمى .

وظل يقرأ .

وتمنت له الخرس

وظل يقرأ .

وتمنت له الشلل

وظل يقرأ .

وكان خطاب الرئيس طويلاً بحيث يمكن سماعه في الطريق دون أن ينتهي أثناء الوصول مشياً من حي القاهرة إلى الباب المعظم ، لذلك فإن شاكرين ، التي نادى على هنية وبلقيس لكي تدخلا من الحديقة وتشاهدا توفيق في التلفزيون ، انفعلت إلى درجة عظيمة عندما اكتشفت أن يحيا يلعب بعيداً عن البيت ، فظلت في رواح ومجيء بين الباب والباب لحين لمحتة قادماً من بعيد ، فصاحت به صيحة سمعتها ملائكة من غرفة المعيشة وأمرته بالإسراع قائلة :

- تعال . . اركض يا يحيا . أخونا توفيق في التلفزيون .
ولم يكن ثمة داع للركض من أجل اللحاق برؤية توفيق .
كان الخطاب طويلاً إلى درجة أنه حتى أبو ملائكة قد تمكن من
اللاحاق به ، وهو الذي لا يصل إلى البيت عائداً من المسرح
الوطني إلا بعد نشرة أخبار الساعة العاشرة بوقت طويل .

(٨)

قبل ست سنوات ، وفي صباح اليوم السابع لميلاده ، وبالرغم من البرد والوحشة ، والشوارع المقفرة والمهجورة من الطير والبشر ، ومن وسائل النقل ، وضعت هنية أم توفيق سرّة يحييا في قطنة صغيرة وحملتها مشياً على الأقدام من حي تونس الى حي القاهرة ، ومن هناك إلى شارع فلسطين بعربة حمل ، ثم بسيارة مصلحة من شارع فلسطين إلى جسر باب المعظم حيث هبطت قريباً من جامع الاوزبكي ، ومشت قليلاً باتجاه قاعة الشعب ، ومن هناك عبرت من تحت مداмик الجسر إلى كلية الطب ودخلت إلى باحتها ، ثم رمت سرّة يحييا هناك ، ودعت في سرها أن يوفقه في حياته وأن يهديه حياً إلى هذا المكان .

كان القصف قد هدأ ، والجو الشتائي القارس قد بددت برودته شمس مشرقة أشاعت البهجة قليلاً في النفوس ، ولكن صفارة الإنذار انطلقت فجأة فجعلت الناس ينسون أمر الشمس المشرقة ويسرعون مضياً في كل الاتجاهات لتجد هنية نفسها وحيدة فجأة ، والناس يزيدون من سرعتهم ، بل يهرولون وهي وحدها التي تمشي على مهل وقد تملكها الإعياء إذ كانت في

اليوم الأخير من حملها بتوأمها شاكرين وصابرين ، تلفتت
تبحث عن أحد تسأله أو تمشي معه أو تستنجد به ، وبالكاد
استطاعت أن تجعل كهلاً يلتفت إليها ويقول :

- لا ندرى أين القصف؟

لم يكن قريباً منها على أية حال . . ولم تكن تريد أن
تعرف من سؤالها أين يكون القصف بالضبط؟ فالسؤال لم يكن
مقصوداً من أجل جواب محدد ، إنما كانت تريد في تلك
اللحظة الموحشة أن تتواصل مع إنسيّ مثلها . . فتمنحها روحها
شيئاً من الطمأنينة وتبدد الخوف الذي تملكها في سحابة
لحظات ملأت الجو بضجيج صفارة انذار . الغارات بدأت منذ
الصباح ، وكانت تملأ قلبها بالقلق على مصير زوجها في حفر
الباطن . نصحتها بلقيس بأن لا تخرج ، ولم تفلح في ثنيها عن
تلك النية التي طالما تمنت لو أنها حققتها لولد من بطنها . .
ولكن الظروف لم تكن تسمح بذلك في فراش النفاس ،
وزوجها منصور كان يضحك من رغبتها المزمنة تلك بعد كل
ولادة من ولادات أبنائها الاربع ، فكانت سرهم تذوي وتحف
وتؤول إلى برميل الزبالة .

ضحكت بلقيس بعد ست سنوات من تلك الواقعة ،
وقالت لهنية وهي تزجج حاجبها تحت شمس مشرقة :

- لو مشيت بضعة أمتار عن كلية الطب ، ورميت سرته في
سوق الشورجة ، أما كان أحسن؟

ابتسمت هنية ، وهي تططبب بيدها على العجين المحتمر ،
وقالت :

- ولماذا الشورجة؟ أضعها في قاعة الشعب أحسن ، حيث
يختبئ المجانين هرباً من المجانين .

غرقت بلقيس في ضحكة طويلة وقالت :

- يسويها الحظ . . أخاف يطلع رئيس وزراء!

فضحكت هنية وقالت :

- خليه يطلع طبيب أحسن . ما نريد لا الشورجة ولا
السياسة .

ثم دورت هنية قرصاً من العجين على مخدة التنور وتركته
مفروشاً عليها وقالت :

- يا رب يصير طبيب . . ما عندنا طبيب بالعائلة .

فضحكت بلقيس وقالت :

- وماذا تريد أن يكون اختصاصه؟

اقتربت هنية بوجهها من فتحة التنور فتطاير منها الشرر ،
وأبعدت جمرات النار عن بعضها البعض بملقط معدني طويل ،
ثم شممت باليد الأخرى قرص العجين على الجدار المستعر
فالتصق به على الفور . . وقالت وهي تنهض بوجهها عن النار :
- طبيب أعصاب .

فعادت بلقيس للضحك وقالت :

- وأين المجانين؟

قالت هنية :

- كثيرون .

ثم ذبّت النار عن يديها بالملقط المعدني وشلعت قرصاً
جديداً من الخبز . . قالت ووجهها متوهج بالنار :

- كنت أمزح . . أريده أن يصبح طبيب مفاصل وعظام .

- فيعالجك من الروماتيز؟

- فيعالجني من الروماتيز .

فاحت رائحة شعواط من رغيف خبز سقط في أتون النار
فانتشلت هنية من النار ورمته إلى الهواء بسرعة وقذفته إلى
طبق من ورق سعف النخل وقالت :

- اشتعل أبوية . . بعدنا ما مسجلىنة بالمدرسة احترق

الخبز .

(٩)

خارج البيت كان يحيا يجلس على دكة الرصيف أمام
الباب ويراقب عصفير تحط على سلك الكهرباء ، ثم تطير إلى
السدرة العملاقة وتزقزق مع يحيا الذي كان يغني ويدندن مع
نفسه : عشر عصفير على الشجرة .. ها .. طار واحد .. تسع
عصفير على الشجرة .. ها .. طار واحد .. ثمان عصفير على
الشجرة .. ها .. طار واحد .. سبع عصفير على الشجرة ..
ها .. طار واحد .. ست عصفير على الشجرة .. ها .. طار
واحد .. ها .. طار واحد ... ثم فاحت رائحة الخبز الطالع من
التنور إلى الزقاق ، فكف الفتيان عن رمي الشجرة بالحجارة
وقالوا : « جعنا » ، ثم هرولوا إلى أمهاتهم طلباً للغداء ، وعاد
توفيق من عمله ، ودعاه إلى الدخول قائلاً له :

- تعال ، يحيا .

ولم يذهب .

- ادخل ، يحيا .

ولم يدخل .

- سمعت يا يحيا؟

ولم يسمع .

- الحر شديد ، يا يحيا .

ولم يشعر بالحر .

- انهض ، يا يحييا .

فابتسم يحييا لشاكرين ونهض ، فقادته من يده كما تفعل

الأم ، وقالت :

- تعال تغدِّ يا يحييا .

في الليل عندما طاف الظلام واستلقى يحييا تحت سماء

صيف صافية ، رأى أربع نجوم تتحرك . . كل واحدة أكثر بريقاً

وأكبر حجماً من باقي النجوم . . راقبها ملياً ، وظل متيقظاً ينظر

إليها إلى أن صعد توفيق إلى السطح ، فسأله يحييا :

- أرى النجوم تمشي .

سأله توفيق :

- أين هي؟

قال يحييا :

- هذه واحدة .

ثم أشار إلى جهة من جهات السماء ، وقال :

- وهذه واحدة .

ثم أشار إلى جهة أخرى :

- وهذه واحدة .

والى جهة رابعة :

- وهذه واحدة .

قال توفيق :

- فعلاً أنها أربع نجوم تتحرك .

قال يحييا :

- هل ستسقط؟

قال توفيق :

- كلا . . لن تسقط .

قال يحييا :

- إذن لماذا تمشي؟

قال توفيق :

- إنها أقمار صناعية ، وهي تصورنا .

قال يحييا :

- يعني تأخذ لي صورة؟

قال توفيق ضاحكاً :

- تأخذ لك صورة .

قال يحييا :

- ليش أنا ما عندي صورة؟

قال توفيق :

- عندما تذهب للمدرسة سنأخذ لك صورة .

في تلك اللحظة سعدت أمه بلقيس إلى السطح ، ومضت

إلى حبل الملابس ، فقال يحييا لها :

- كيف لا تسقط النجوم؟

لم تبال بلقيس به ، بل رفعت حبل الملابس إلى أعلى
ومرت من تحته ، ثم توجهت إلى سياج السطح في الظلام
الدامس ، ورأها يحييا وهي تقف على حافة السياج وترمي

نفسها من السطح .. فأصبح يحيا ، بعد أن سمع صوت ارتطامها بصبة الحديد ، خائفاً ووحيداً ولا أحد يحميه من خوفه من ظلام الليل وكثرة النجوم ، فأغمض عينيه وفتحهما فإذا ببلقيس تلتفت إليه وتقول :

- لا تنظر كثيراً إلى النجوم ، ابني .. وجهك سيمتلئ

بالتكليل .

قال يحيا :

- ولكن الليل كله نجوم .. فأين أنظر إذن؟

ضحكت أمه بلقيس وأعطته الحق وقالت لنفسها : «فعلاً

أين ينظر الإنسان وهو نائم على السطح لغير النجوم التي تملأ السماء؟» ، ثم أرادت أن تهدئ من روعه ، فقالت له وهي تمسح رأسه بيديها :

- هل أروي لك قصة قبل أن تنام؟

فقال وروعه لا يهدأ :

- هل تسقط النجوم؟

قالت :

- كلا .

قال :

- لماذا لا تسقط؟

قالت :

- الله هو الذي يجعلها لا تسقط؟

قال يحيا :

- كيف؟

قالت أمه :

- إنه يمنعها من السقوط .

صمت يحيا لكي يتنفس ، ثم قال :

- ومن هو الله؟

قالت أمه :

- هو الذي خلقنا جميعاً .

قال :

- وأين هو الآن؟

قالت :

- فوق .. في السماء .

قال يحيا :

- وإذا نام؟

قالت أمه :

- إنه لا ينام .

ثم راحت تقرأ له «آية الكرسي» وتتلوها :

﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ .

وبعد أن انتهت قالت :

- ها . . أروي لك قصة «ليلى والذئب» أم «شيخ

الجرذان»؟

قال يحيى :

- لا . . اروي لي قصة «قطر الندى والأقزام السبعة» .

فقال بلقيس :

- كان ياما كان في سالف العصر والأوان . . ملك ماتت

زوجته فتزوج امرأة ساحرة الجمال وحسبها فتان . . وكانت لهذه

الزوجة مرآة مسحورة لها لسان ، وتحكي كما يفعل الإنسان . .

وذات يوم وقفت زوجة الملك أمام المرآة ونظرت إلى طولها الفارع

كغصن البان ، فابتسمت وقالت :

- يا مرآة الجدار . . يا مرآة الجدار . . من أحلى النساء في

هذي الديار؟

فقال المرآة :

- أنت .

ففرحت زوجة الملك فرحاً شديداً ، وأغمض يحيى عينيه ثم

نام ، فسمع الملك يقول :

- يا مرآة الجدار . . يا مرآة الجدار . . من أقوى الرجال في

هذه الديار؟

صمتت مرآة الجدار ، ولم تجب . . فقال الملك صائحاً

صيحة عظيمة :

- يا مرآة الجدار . . يا مرآة الجدار . . من أقوى الرجال في

هذي الديار؟

صمتت مرآة الجدار ولم تجب . . فاشتد غضب الملك وقال :
- لماذا صمتت مرآة الجدار؟

وسمع يحييا صوت نساء ، وسمع صوت رجال فاستيقظ
يحييا ، ولكنه لم يفتح عينيه . قال الملك :
- أين ساحرة القصر؟

فأتت ساحرة القصر البيضاء وقالت :
- شبيك لبنيك .

فسألها الملك :

- ما بها مرآة الجدار؟
فقالت :

- ربما هي غير متصلة بالنجوم .

ارتعد يحييا وارتجف قلبه ، ففتح عينيه ليجد أمه تقرأ في
ورقة صغيرة وتبتسم مع نفسها ، فقال :

- أسمع أصواتاً تأتي من بعيد يا أمي .
فقالت له أمه :

- نم يا حبيبي ، ولا تخف .

فأغمض يحييا عينيه ، ولكنه لم ينم ، بل اشتد اضطرابه
وكان خوفه من النوم أكبر من خوفه من النظر الى النجوم . .
وضاق ضيقاً شديداً بصوت المذياع الخافت يردد أغنية تحبها أمه
حباً جماً لمطربة عمياء و تقول إنها ميتة واسمها أم كلثوم .

الفصل الثاني

أربعة أصابع

(١٠)

وراح يوم وجاء يوم ، فإذا بنحتم ، الضرة الثالثة لبلقيس تطرق باب البيت وتأتي لزيارتهم ومعها أولادها الستة ، عدنان وقحطان ونعمان وغسان وعمران وعبد الرحمن ، طالت وقتهم قرب باب البيت قبل أن يدخلوه ولم ينتبهوا ليحيا الجالس على دكة الرصيف في ظل شجرة الياس وهو منشغل بعد العصافير التي تحط على سلك الكهرباء ، ثم تتقافز هنا وهناك أو تفرز مذعورة من السلك إلى سعفات النخيل أو أغصان السدرة العملاقة على الجانب الآخر من الزقاق .

مرت ناي وقالت :

- هلو يحيا .

فقال يحيا : « ترى لماذا لم يذبحها الراعي؟ »

ثم مرت ليلك وقالت :

- هلو يحيا .

فقال يحيا : « ترى لماذا لم يأكلها الذئب؟ »

ثم مرت ملائكة وقالت :

- هلو يحيا .

فقال يحيا : « ترى لماذا لا تطير إلى السطح؟ »

وبعد قليل خرجت الضرائر الثلاث ، بلقيس وهنية وختام
من البيت ، وجلسن مع خيال المآة في الحديقة ، ثم امتلأ
الزقاق بينات كثيرات يرتدين ملابس المدرسة ويتضحكن ،
وفي أفواههن أسنان كثيرة جعلت يحيا يتحسس بلسانه الفراغ
الصغير الموجود تحت شفته العليا ، ثم راح يحرك بإصبعه سناً
مرتخياً قرب الفراغ ظل يؤرجحه ذات اليمين وذات الشمال .
تناقص عدد البنات الضاحكات من عشر إلى سبع ثم من سبع
الى ثلاث ، ثم اختفين تماماً من الزقاق عندما كشفت سحابة
من الغبار عن سبعة وعشرين خروفاً أبيض تهروول ، وراعية
صغيرة تهشها بالعصا وتهروول خلفها . مرت بعدها عربة النفط
يقودها حمار ناصع البياض وقالت ختام من داخل البيت :

- طوال هذه السنوات وأنا في بيت أهلي في البصرة . . ولم

أت إلى بغداد قط .

ثم اقتربت عربة النفط أكثر ، فنظر يحيا إلى عجلاتها
الأربع التي كانت تدور ، وبائع النفط يضرب قرصه المعدني
بالعصا . خرجت ختام ضرة بلقيس ومعها أولادها الستة ،
فنظرت إلى يحيا وسألت بلقيس :

- إذن هذا هو يحيا .

ثم مدت رأسها أمام شجرة الياس لتتأكد ، وقالت :

- هل هذا هو يحيا؟

فقال بلقيس :

- نعم ، هذا هو يحييا .

قالت ختام :

- لم أره منذ ست سنوات .

ثم استدارت إلى أولادها الستة وقالت لهم :

- أخوكم يحييا ، أسمته هنية طفل اللالة ، لأن أمه ولدته

في الحرب على نور لالة .. فما أجمله ابن اللالة!

ثم تمت بصوت خفيض :

- حقاً ما أروع جماله .. كأنه ابن أخرة .

عقدت بلقيس بين حاجبيها وقال وجهها إنها سمعت

شيئاً غير مفهوم . ثم عاد وجهها وانفرج عن ابتسامة باهتة

عندما همت ختام بتقبيلها والسلام عليها قبل أن تهم

بالرحيل ، فسلم أخوة يحييا عليه واحداً واحداً ودخلت بلقيس

إلى البيت وقالت لهنية التي كانت لا تزال في الحديقة :

- ولكنها جاءت إلى بغداد عندما حكمت المصلحة ..

أفي أول مرة تزورنا بعد وفاة المرحوم تريد حصة أولادها في

البيت .. عابت هالزيارة .

الأخوة من بعيد كانوا ينظرون إلى البيت ويتعدون ..

بينما أمهم لا تزال تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، وكأن لديها كلاماً

لم تقله بعدُ أو هي نسيت شيئاً يجب أن تعود لأجله مرة

أخرى . نهض يحييا ودخل إلى البيت ومسك ذيل دشدشة أمه

وقال :

- يمة ، سنّي انكسر .

فأخذت بلقيس السن المقلوع منه وضحكت ، ثم رمته بقوة
باتجاه عين الشمس وقالت :

- يا عين الشمس .. خذي سن الحمار وأعطنا سن
الغزال .

تابع يحيا السن بنظره ورآه يستدير عن قرب ويسقط في
شجيرة الأس التي كان يجلس في ظلها قبل قليل .. ارتعد
قلبه وكاد يبكي أسفاً ، لأن السن قد ظل طريقة إلى الشمس ،
فنبه أمه إلى ذلك وقال :

- ماذا فعلت ؟

قالت بلقيس :

- لا يهم ، فالشمس ستعطيك واحداً أفضل .

فغضب يحيا وثار وقال :

- لقد سقط في بطن الشجرة .

فنهرته أمه وقالت :

- لقد أخذته الشمس .

قال والخسارة تملؤه :

- بل رأيتَه يسقط في بطن الشجرة .

قالت بلقيس بضيق :

- اليوم جمعة ، وعندني عمل كثير .. هيا ادخل إلى

البيت لكي تتحمم .

في الليل عطت رائحة صابون الغار من الخدّة التي نامت عليها أمه وقت الظهر ، وكانت هنية تئن في فراشها ، وتوفيق ينشد في فراشه : «دمت يا غازي ودام الملك موفور النعم . غازي المعظم يا عرب . الهاشمي جداً لأب . غازي المتوج بالإرب . فادعوا له العمر الطويل» . ثم بعد صمت قال توفيق لأمه :

- سيعطونني مكافأة مقابل الإعلان بصوتي عن فيلم «الملك غازي» .

فقلت شاكرين وهي تقفز من فراشها على الأرض :

- يعني راح تطلع تغني بالفيلم؟

قال توفيق :

- ستسمعين صوتي فقط .

ارتفع صوت موسيقى حفلة عرس ، فقالت أمه هنية :

- هيا ، شد حيلك وادخر نقودك للزواج .

فقال توفيق :

- الزواج؟ وعن أتزوج؟

قالت أمه وهي تخفض صوتها وتنظر إلى سياج السطح

الذي يفصل بين البيتين :

- ملائكة .

قال توفيق وهو يضحك :

- ولماذا ملائكة؟

قالت :

- لا أدري . . بنت حلوة وعاقلة وعلى وشك التخرج .
من داخل البيت ، ومن عمق بئر السلم تصاعدت نبرات
خافتة لصوت قدم يغني في مذياع بلقيس ، ومن بعيد كان
يأتي صوت يتموج لحفلة ساهرة يصخب مطربها الشعبي في
استثارة حماس جمهوره ، فيأتي الهواء بحفلة العرس طافية في
الظلام ، ويوزع دبكاتها على الحداثق والسطوح . قالت
شاكرين :

- متى يطلع الفيلم؟

قال توفيق :

- لا أدري .

ثم صمت مرة أخرى ، وراح يدندن بلحن أغنية لهيثم
يوسف كان المطرب يغنيها في حفلة العرس ، فقالت شاكرين
ليحيا :

- عفية يحيا ميخالف أجيء معك إلى المدرسة؟

فصاح يحيا :

- أنا لم أذهب بعد .

فقالت شاكرين :

- خالة بلقيس تقول إنك ستذهب غداً .

فقال :

- لا ليس غداً .

فقالت شاكرين وهي تنهنهه :

- بلى .. بلى .. أنا رأيت جنطتك في الغرفة .
فصاح بها يحيا :

- هل لعبت بها ؟ .. سأضربك إن لعبت بها .
تحولت النهنهة إلى بكاء ، فقالت لأمها هنية :
- ماما .. أريد جنطة .
فقال لها توفيق :

- أنا سأشتري لك واحدة .. اسكتي عاد يا بلبل هزار .
سكتت ونامت قرب أمها ، وحل الصمت مع اشتداد
الظلام حالكاً وملياً حول النجوم التي يراها يحيا تمشي تحت
السماء ، وسمع توفيق يقول لأمه :
- ولكن يا أمي ، هل صحيح أن أم ملائكة قد ماتت قبل
أن ينتقلوا إلى هذا البيت . يقولون إنها رمت نفسها من السطح
العالى؟

قالت هنية وهي تضع أصابعها بين عينها وأذنها :
- والله يا ابني بين الصدق والكذب أربعة أصابع .. وأنا
سمعت هذا الكلام من كحيلة ، تلك الفضولية التي تقف
خلف سياج الحديقة طوال النهار وتتفرج على الغادين
والرائحين ، وكأن الشارع سينما .

قال توفيق :
- أنا أيضاً سمعت هذا الكلام من ابن كحيلة .
قالت هنية :

- ولكن لماذا تسأل؟

فقال توفيق :

- يعني .. هذه ليست بالذكرى الطيبة في حياة أي إنسان .

قالت هنية :

- بلقيس تقول ربما هذا هو السبب في انتقالهم من بيتهم القديم إلى هذا البيت .

صعدت بلقيس إلى السطح وهي تحمل بيدها سراحية ماء . رفعت حبل الملابس الذي كان خالياً تماماً ، ومرت من تحته .. مضت إلى السياج ووضعت السراحية عليه ، ثم عادت إلى يحيا وسألته :

- ها .. ألم تنم بعد؟

ثم سحبت بطانية إلى سريره المعدني وغطته بها :

- الدنيا أخذت تبرد .. تغط جيداً .

جلست على فراشها الممدود على الأرض قريباً من شاكرين ورمت بظهرها على الحائط ، فراح الحائط يتراجع إلى الخلف وينهار . سقطت بلقيس إلى الأسفل ، فسمع يحيا من مكانه على السرير المعدني صوت ارتطامها بصبة الحديقة الكونكريتية ، ثم تلاه صوت تحطم سراحية الماء على الأرض . توفيق الراعي ذبح ناي .. وبببي هنية أكلها الذئب .. شاكرين الخنفساء جلست عند باب البيت ووضعت الحمرة على

شفاهها والبودرة البيضاء على وجهها بانتظار عريسها شيخ
الجرذان . قال شيخ الجرذان وذيله يتلوى يمنة ويسرة :

- يا مرآة الجدار . . يا مرآة الجدار . . من أقوى الرجال في
هذي الديار؟ .

فصمت المرأة ولم تجب .

أعاد شيخ الجرذان سؤاله وقال :

- يا مرآة الجدار . . يا مرآة الجدار . . من أقوى الرجال في
هذي الديار؟

فقلت المرأة :

- ق نفسك من الجاهل يحيا .

ارتجف قلب يحيا . . وطوحت موسيقى العرس برأسه
فانقلب على وسادته وتلفت يبحث عن أمه ، ولما وجدها
مستيقظة وظهرها مسند إلى الحائط ورجلاها مبسوطتان على
الأرض ، قال لها :

- يا أمي . . أسمع أحداً ينادي باسمي .

قالت أمه :

- بسم الله الرحمن الرحيم . . اسم الله عليك ، ابني . .

لا أحد ينادي باسمك ، فتم يا ولدي .

قال يحيا :

- بلى . . يا أمي أسمع أصواتاً غريبة تتردد . وأخاف أن

أنام .

فقال أمه :

- لا أحد هناك .. إنها أصوات العرس .

فانقلب يحيا على ظهره مرة أخرى ، وأصبح وجهه في مواجهة السماء ، وطافت برأسه أم ملائكة التي لم يرها قط . . .
قال في نفسه : ما معنى أن تسقط من السطح وتموت؟ ولماذا ماتت بعد أن سقطت من السطح؟ وأين هي الآن؟ ولماذا لم يعد يراها أحد؟ . . . واستنتج من تلك الحادثة التي سمعها مراراً وتكراراً أن كل الناس يجب أن يسقطوا من مكان عال لكي يموتوا . . . وفكر للمرة الأولى في حياته كيف فاته أن يسأل عن أبيه منصور الذي قالت أمه إنه مات؟ . . . كيف مات؟ وهل سقط هو الآخر من مكان عال فمات؟

أعلنت هنية لأولادها أكثر من مرة أن هذا البيت هو الحبل السري الذي يربطها بالحياة ، وأنها إذا تخلت عنه ستفارق الحياة كمدأ عليه . . ولم يأخذ أحد من أولادها كلامها مأخذ الجد ، إذ حال الضنك بينهم وبين تصديقه ، فباعوه في وقت شدة وقبضوا حقهم من ختام الزوجة الثالثة لمنصور أبيهم ، وكان ذلك قبل أن يطيروا إلى مطارات البلاد البعيدة التي قيل إنهم مزقوا فيها جوازاتهم على عجل ثم دخلوا فراديسها لاجئين .

وسرعان ما اكتشفت هنية أمهم ذلك عندما عرفت من ختام ، التي زارتهم زيارة ثانية ، أنهم قد التقوها قبل السفر وباعوا نصف البيت إليها مقابل إقرارهم بالتنازل عن حصصهم منه ، وأنها في زيارتها الأولى عندما جاءت لجس النبض لم تكن تعلم أن هنية لا علم لها بأنهم قبضوا من زوجة أبيهم مالاً مقابل ذلك وأن ختام التي أصبح أولادها يملكون في البيت أكثر مما تملك تفكر في شرائه كاملاً بالحصص الخمس المتبقية منه . وكادت هنية أن تموت كمدأ على فردوسها الضائع . . وقالت لتوفيق توصيه إنها إذا ماتت فأخته شاكرين أمانة في عنقه ، وفوضت أمرها لله في مرارة قلبها الذي احترق وطلبت منه أن يسامح أولادها على ما

فعلوه بها ، وقالت : حسبي الله ونعم الوكيل على من أقنعهم بذلك . فقالت لها بلقيس تخفف عنها :

- حصصنا في البيت لا زالت موجودة ، وضرتنا ختام بعيدة ولا تريد هذا البيت من أجل السكن . . أما سمعت ما قالته عندما جاءت هذه المرة؟ قالت سأدعكم تعيشون فيه ، وإذا ما رغبتم في الاحتفاظ بحصصكم فيه فلن أسبب لكم أية مشاكل .

لكن هنية بقيت صامته وحزينة تنظر إلى مكان واحد هو الجوراب الذي ترتقه بين يديها ، ثم رفعت نظرها بعد قليل ، وقالت :

- أثناء الحرب مع إيران سقط صاروخ على الملجأ الذي كان أولاد الخايبة يتكدسون فيه ، لكن منصور ابن عمي نجا ولم يموت وعاد إلى هذا البيت مع انبلاج الفجر وفتح الباب بالمفتاح الذي معه ، فلم أفزع ولم أقطع صلاتي عندما رأيته .

ثم التفتت إلى بلقيس وقالت وكأنها تلومها :

- ثم جاء وتزوجك ، فذهب إلى الحرب ولم يعد .

قالت بلقيس :

- قسمته يا هنية . . قسمته . .

فقالت هنية :

- ولكنه ترك لنا هذا البيت ليؤوينا . . لا لكي يبيعه أولاده

من بعده .

قالت بلقيس :

- تعرفين ضنك الحصار .. أصبحوا يبيعون السكائر على
الطرق . . وهذا لا يليق بهم .

فظلت هنية تنظر إليها بضيق ، ثم قالت :

- الدنيا ظلمة ولا أرى جيداً .. صارت الدنيا تظلم مبكراً .

كم الساعة الآن؟

قالت بلقيس :

- لقد تغير الوقت .. والساعة هي السادسة الآن .. هذا هو

التوقيت الشتوي .

ثم نهضت والتقطت كتاباً من الأرض وقالت :

- جئت بمجلات من البدالة لكي أغلف بأوراقها دفاتر

يحيا وكتبه .

وفتحت بلقيس الكتاب ، ورأت فيه هنية موزاً وتفاحاً

وبرتقالاً ورماناً وخوخاً ومشمشاً .. قرأت :

الرقم واحد : حبة أناناس

الرقم اثنان : موزتان

الرقم ثلاثة : ثلاث تفاحات

الرقم أربعة : أربع خوخات

الرقم خمسة : خمس رمانات

الرقم ستة : ست برتقالات

تبدد الحزن قليلاً عن وجه هنية ، وقالت وهي تضحك :

- عجائب وغرائب في دفتر يحيا .

ثم ابتسمت في سرها لقول منصور إن قلب بلقيس فارغ
كقلب السمكة .. ما أسهل التألف معه .. وإنه رقيق كقشرة
الاجاص هفهاف كقماش الململ وكالريشه يطير من ارق
نسمه تهب عليه ، إنما قلب هنية مليء بالجراح التأم بعضها
وبعضها الآخر لا يزال ينبض لأنه لم يندمل بعد ، وكيف
يندمل وأولادها بعيدون عنها ، والبيت بلا راع يحميه . ولما رأته
شاكرين نصف المنغولية كل هذا الحزن في عيني أمها قالت
لها :

- لا تحزني .. إختوتي عندما يعودون سيشترون البيت من
جديد .

فقالته هنية :

- يعلم الله هل سيعودون أم لا .. وأنا لا أعرف حتى أين
هم؟ .. وقلبي مثل النار عليهم .
فقالته شاكرين :

- علميني الحياكة يا أمي .. وسأغزل قمصاناً نبيعها
لنشترى البيت من جديد .

ضحكت هنية ضحكة طويلة ولم تشأ أن تكسر خاطر
ابنتها الوحيدة ، فباعته عشرة كتاكت دفعه واحدة اشترت
بثمنها كرات النسيج بلون واحد هو اللون الصحراوي . وعندما
اعترضت شاكرين على هذا اللون وطلبت كرات ملونة خضراء

وصفراء وحمراء ، أبت هنية ورفضت بشدة وقالت :

- هذا هولون الإنسان .. فهيا حوكي ..

وبدأت شاكرين تتلمس أعواد الحياكة بحذر ، فتحوك قليلاً
ثم تنقض غزلها فتعيده من جديد . وبالرغم من أنها ولدت في
العام الذي سمي بعام الضربة واختل عقلها من الهبطة وهي لا
تزال نطفة في رحم أمها ، إلا أنها كانت لا تكف عن التمسك
بذلك الخيط الرفيع الذي يمتد من أوله إلى آخره بينها وبين كرة
تتحرج في كل الاتجاهات فتسحبه إليها بشغف ، وتعيد تكوينه
على شكل خطوط مستقيمة سرعان ما تنكثها أمها بعد أن
تربها الكثير من الشغرات فيه .

أما بلقيس فقد كانت لا تزال مأخوذة بكلام الفنان عبد الملك ورأسها معوجّ مع شخوط وخطوط يكتبها لها على القصاصات ويناولها إياها من خلف السياج بيده السليمة ذات الأصابع الخمسة . . ولا شيء أكثر من ذلك كانت تريد لكي يمتلئ قلبها الفارغ بالأوهام ويشرق وجهها العابس بالحلاوة .

وذات يوم رفعت الأغطية البيضاء التي تحمي بها هنية أرائك غرفة المعيشة من الغبار وجلست عليها وطالت جلستها هناك وهي تراقب أغصان اللبلابة التي جاءت بها برعماً من البدالة قبل سنوات ، فنما وظل ينمو حتى تعرش على صورة منصور ، ووصلت أوراقه إلى السقف . طلبت منها هنية أن تضع قطرة الالتهاب لعينيها فنهضت ، وجاءت بها ثم سألتها :

- هل تغزل يوماً أحد بعينيك غير منصور الله يرحمه؟

تنهدت هنية وبدا وجهها الأبيض الناعم مشرقاً بالحياء ، وقالت :

- كثيرون يا بلقيس تغزلوا بجمالي ، ولكنني أتذكر واقعة بعينها حدثت قبل أن أتزوج ، وبعد العام الذي فاض فيه نهر دجلة . . . يمكن قبل ثلاثين سنة على ما أفطن . . أذكر أن أبي

كان يعمل حارساً لجراديع واحد من الملوك في العظيفية ، وكان يأخذني معه إلى هناك أيام الصيف . وعلى شاطئ النهر كنت أخلع حذائي وأمشي حافية القدمين على الرمل البارد ، وكان ثمة أعرابي يقف على بعد مني وينظر تارة إلى وجهي وتارة إلى بياض قدمي . . . وكنت أشعر به يراقبني دائماً كلما ذهبت إلى هناك . وذات يوم أخذ أبي حصان الملك إلى ذلك الرجل فعرفت أنه حداد يعمل في شحذ وصب حدوات الخيول ، فلما رأني مع أبي راحت روحه وطار عقله ، فكان مع كل ضربة مطرقة يرفع نظره إلى أعلى ويختلس النظر إلي . فلما انتهى من عمله بشق الأنفس اكتشف أبي أنه قد وضع الحدوات على حوافر الحصان جميعها بالقلوب .

وضعت هنية رأسها في حضن بلقيس ، وسحبت جفونها المتهدلة إلى الأعلى بكلتا يديها ، وأعدت رأسها بقوة إلى الخلف ، فقالت لها بلقيس وهي تنقط في عينيها العسليتين قطرات الدواء :

- ألم تشاهدي أميرة أو ملكاً في يوم من تلك الأيام؟

قالت هنية :

- وأنا صبية رأيت سيارة سوداء تمر بالقرب مني ، وقال أبي إنها سيارة الملك . . . وقد كنت أفق بالقرب من شذروان ماء يقع في نهاية الممر الطويل الذي يؤدي إلى قصر الرحاب . . . وكانت سيارة الملك قادمة من قصر الزهور في الحارثية . . . وتعرفين أنه

في قصر الرحاب ذلك وعندما قامت الثورة انقتل الملك وخاله
وخالاته وجدته وجميع من كان معه في القصر . . . ويقول أبي
إن ذلك الشذروان الذي رأيته وأعجبت به ذات يوم قد امتلاً
فيما بعد بدماء الأجساد التي ثقبها رصاص المجانين .
أعدت هنية رأسها إلى أمام ، وأغمضت جفونها بقوة على
ماء القطرة وقالت :

- كل ما مر بنا من مأس . . . هو حوبة هؤلاء الأطفال الذين
قُتلوا بلا ذنب .

عادت بلقيس تجلس على الأريكة بينما بقيت ضررتها
هنية على الأرض قريبة من يحيا الذي كان يحل فروضه
المدرسية ، ففركت هنية عينيها من حرقه ماء القطرة ، وقالت :

- ربما لا تعرفين يا بلقيس أنني قد خُطبت في ذلك العام
إلى منصور ، وتزوجته بعد عامين ، ومنذ ذلك الحين وهو يتزوج
واحدة كل عشرة أعوام . تزوج ختام أولاً ثم تزوجك ثم أراد أن
يتزوج بالرابعة لولا أن حملت أنت بيحيا ، ودخلنا الكويت ،
فراح وما رجع . . . الله وكيلك الكل مجانين .

وبدا على بلقيس انها غير منتبهة تماماً لما تقوله هنية ، ولما
سألها يحيا عن حاصل جمع رقمين أخطأت في الحساب ،
فأنتبتها هنية على ذلك بشدة ، وقالت لها إنها لم تعد في هذه
الأيام تنتبه إلى ابنها كما يجب .

ومرت ستة شهور بأكملها وبلقيس تجلس على الأريكة

سارحة في مكان بعيد ، وتسترجع مع نفسها كلام القصاصات التي تملؤها قصائد الفنان المختارة من دواوين الشعراء بينما يحيا محل فروضه على الأرض ويخط في دفاتره دروس القراءة والحساب ، الى ان جاء يوم ربيعي مشمس من أواخر شهر نيسان ، فقال يحيا لأمه التي كانت تنظر إلى الحائط وتبتسم :

- أبو ملائكة في التلفزيون .

وبخطوة واحدة أصبحت بلقيس أمام التلفزيون ، ولكنها انأخذت وطار قلبها هلعاً من عبد الملك عندما رآته يردد أناشيد عيد الميلاد التي كانت عندما تحضر تحضر معها رجفة خوف في قلبها والبلعوم وتضيق بها الدنيا وتنعصر روحها أسفاً على زوجها الذي ذهب ولم يرجع . . وفكرت للمرة الأولى منذ أشهر أنها تضع القصاصات ، التي أصبح عبد الملك يحملها إليها في مظاريف ويدعي إرسالها إلى الخارج ، في خزانتها بدون حجاب مثل شيء غير مشبوه ، بينما تنتبه الآن أنها تشعر بالخوف منها ، وتذكرها كثيراً بملابس منتهى غالية الثمن واسورتها الذهبية المرصعة بالياقوت الأحمر . . .

اضطرب قلبها وشعرت بالخواء بدل الفرح الذي كانت تشعر به عندما تضع الطوابع على تلك المظاريف بحجة إرسالها إلى الخارج ، ثم تدسها داخل حقيبتها في غفلة من عيون منتهى وباقي الوجوه والعيون . ولم يمر سوى يوم واحد على ذلك اليوم الذي ظهر فيه بالتلفزيون حتى جاء عبد الملك ليشتري

بنصف مليون دينار خط الهاتف الذي باعه قبل سنوات بربع مليون دينار .

وتجمدت يدها فوق اللوح المستقيم قريباً من الميزان ، ولم ترد على تحيته المرححة ، فقال لها بتودد :

- هل رأيتني في التلفزيون؟

ولما لم يسمع جواباً منها قال لها بخجل اصطنعه للتحبيب :

- كيف كنت؟

قالت وقلبها يتخبط :

- لا أدري ، الكيكة كانت عملاقة جداً ، فلم أرك . أين

كنت تقف؟

ظل عبد الملك واجماً ينظر إليها ولا يرد . . وطالت وقفته أمامها وهو ينتظرها والمظروف في يده بين يدها والميزان . ولما لم تمد يدها إليه ، مد عبد الملك يده إلى يدها ، وقلب كفها الممدودة فوق اللوح المستقيم وسحب القلم الجاف من بين أصابعها ، ورسم خطأ طويلاً في باطن كفها سرعان ما اخترق جسمها كالبرق ، وامتد مندلعاً من سمت رأسها وحتى أصابع قدميها ، فشعرت بلقيس ان ذلك الخط قد لامسها بطريقة هجوم شرس ، وبأن تلك اللحظة الغريبة لن تنمحي من يدها ومن حياتها قط . وظل المظروف لا يثأ تحت أوراق معاملة الهاتف مثل نقود مخفية يُراد بها أن تكون بعيدة عن العيون وأن لا يلحظ وجودها المريب أحد ، غير أن فستاناً يُدعى البرنسيسة هو

فستان منتهى تحرك قريباً من قميصها فارتبكت بلقيس ولم ترفع رأسها قط خوفاً من أن يكون من المظاريف قد انفضح .

في ذلك اليوم عادت بلقيس إلى البيت مشياً على الأقدام ، وظلت طوال الطريق خائفة تفكر في نفسها أنها لا تعرف ماذا حل بصفيرتها السوداء الطويلة التي قصتها بعد أن أكملت الثانوية ، ثم احتفظت جدتها بها داخل كيس من النايلون كلما نظرت إليه بلقيس خافت دونما سبب تعرفه ، وأغلقت عليها الدرج الموضوع قرب وسادتها . فكرت أيضاً أن كل شيء نحرص على الاحتفاظ به سيختفي في نهاية المطاف ، وأن جدتها ، التي اختفت هي أيضاً من زمن طويل قد أسمت الشعرة البيضاء الوحيدة في تلك الضفيرة بشيبة السعادة . . والآن شعرها الذي يخفيه الحجاب لا توجد فيه خصلة واحدة خالية من الشعر الأبيض ، وأنها تتمنى لو تملك النقود التي تكفي لصبغة بلونه الكستنائي الغامق من جديد .

كانت تنظر بين الحين والآخر إلى باطن كفها كالمأخوذة ، وتواصل السير بين المشاتل على عجل محاذرةً ، وهي تمشي بين السواقي وأكوام التراب ، أن يتلوث حذاؤها الأسود الوحيد بالوحل أو أن تتبلل تنورتها السوداء الوحيدة بالماء . وأدركت أنها لم تكن تنظر إلى شيء يصادفها عندما تسير ، ولا تفكر بشيء غير تلك الكف اليمنى الثقيلة بالخط الطويل للقلم الجاف ، ولكنها لم تنس المرور بأنية الكريستال ذات الحواف المذهبة التي

قالت لنفسها إنها ستشتريها ذات يوم من الأيام . فلما وقفت أمام واجهة محل التحفيات وجدتها لا تزال هناك ولكن تغطيها طبقة من الغبار . . قالت لنفسها : سأنساها هي الأخرى في نهاية المطاف . . وظلت بلقىس لعدة أشهر تسير ولا شبح قريبها يسير ولا هواء طري يهب من حولها ولا الكون يبادلها شوقاً بإذن صاغية ، فشوقها كان قد هبط ، بعد يوم الأناشيد ، من عليائه وراح يحط ثقيلًا بطيئاً قريباً من العش ، ويتأرجح حوله ثم يلمط بالكحل منديلها الورقي الأبيض . وعندما وصلت إلى باب البيت مسحت دموعها الصامته . شعرت أن روحها تهدأ من روع قلبها الذي لم تكن تعرف بالضبط كيف تحوّل واحترق . دخلت إلى المطبخ ، وقالت لهنية على الفور ، وهي تشعر بالذنب :

- منذ أيام و يحيا يسمع أصواتاً . . يقول إن أحداً ينادي باسمه .

فقالت هنية :

- إن سمعه مرهف . . هذا كل ما في الأمر .
فقالت بلقيس وهي تكاد تبكي ، لأنها للتو قد أفاقت من حلمها الطويل :

- ولكنه يتحدث قبل أن ينام عن أحد ما ينادي باسمه .
قالت هنية :

- لا عليك . . نجمه خفيف . . سنأخذه وندور به على الأئمة والأولياء الصالحين .

(١٣)

- يا ملائكة الصالحة .. حطوا طوسكم فوق روسكم ..
جاءكم الماء الحار .

دلقت بلقيس الماء الفائز مع الرز المسلوق في طبق معدني
مليء بالثقوب ، وتركت الرز في المصفي يتصاعد منه البخار
لحين يتوشل من الماء ، ثم ذهبت لتفتح الباب ليحيا الذي كان
قد عاد لتوه من المدرسة . قالت له :

- ما بك يا يحيا؟

قال :

- رأيت طائرة تطير .. والسماء رأيتها مليئة بالدخان .
خرجت بلقيس معه إلى الحديقة ونظرت إلى أعلى
فوجدت خيطاً ناصع البياض يشق السماء إلى نصفين ..

فسألها يحيا : ١

- ما هذا ، يا أمي؟

قالت :

- لا أدري .

قال يحيا :

- هل ستنشق السماء؟

قالت بلقيس وهي لا تنظر إلى يحيى :

- كلا .

فرفع يحيى يديه إلى وجهها ، ولفت نظرها إليه ، وقال :

- أين بببي هنية؟

قالت بلقيس :

- ذهبت إلى المركز الصحي . . ستعود بعد قليل .

فقاطعها يحيى وركض إلى الباب وصاح :

- بل عادت . . أسمعها تتحدث مع أبو العربانة .

نظرت له بلقيس ملياً ، ووقفت تنظر قرب الباب ، فظهرت

هنية بعد قليل ، وما أن رآها يحيى حتى هرع إليها واحتضنها ،

فاحتضنته هي بدورها وقالت :

- ما عندهم دواء غير البارايستول .

قال يحيى :

- انظري . . انظري . .

فقالت هنية :

- جئت بأبو العربانة هذا من أجل بيع باب غرفتي .

فكرر يحيى :

- انظري . . انظري .

قالت بلقيس :

- لا حول ولا قوة إلا بالله . . ليأخذ سجادة غرفتي . . أما

الأبواب فلا .

قالت هنية :

- وما حاجتي إلى باب .. أنا وشاكرين لا نحتاج إلى باب
نغلقها علينا .

قالت بلقيس :

- لنتنظر أن يأتي توفيق أولاً ، ونر ماذا يقول؟

فقالت هنية :

- وماذا سنأكل للفطور ، واليوم أول رمضان؟

فقال يحيى لهنية :

- انظري .. انظري .

فنظرت هنية إلى أعلى ، وتاه بصرها في السماء ، ثم

اعترتها قشعريرة برد وقالت :

- ما هذا؟

فقال يحيى :

لعلها طائرة تطير ، يا بيبي .

- صاحت شاكرين :

- طائرة .. طائرة .. طائرة .

قالت هنية :

- لم يعد للطائرات مكان في السماء .

وقالت بلقيس :

- ولدتُك في عام ضربة بوش .. ومنذ ذلك اليوم لا تطير

طائرة في السماء . ألا تعلم أنه الحصار .

ثم التفتت إلى هنية ، وقالت :
- لماذا تدعي يحيا يناديك بيبي .
لم ترد هنية ، بل ظلت تنظر إلى السماء فقالت لها بلقيس
تناديها :

- بيبي .

فقالت هنية :

- هي أول ما نطق به ، وأنا أحبها .

قال يحيا :

- ولكنني أسمع أزيزاً في السماء .

فقالت هنية :

- لا نسمع شيئاً . . هل تسمعين شيئاً يا شاكرين؟

فقالت شاكرين وهي تبتسم بلا داع :

- كلا . نعم .

فقال يحيا :

- واسمع صوتاً كالدمام .

قالت هنية :

- استرنا ، يا رب .

قالت بلقيس :

- لا عليك ، تعال اكتب واجبك .

صاحت شاكرين :

- أنا أيضاً أكتب واجبي .

أخذتهما بلقيس إلى المطبخ ، ثم أخرجت كتاب القراءة من بين الكتب ، وقالت : «الحصان كبير ، ولكن الفيل أكبر منه ، والحمامة صغيرة ، ولكن البلبل أصغر منها ، والعنب حلو ، ولكن التمر أحلى منه» ، ثم أخرج يحيى دفتر القراءة وراح يكتب : «في البستان خوخ وتين وتمر وعنب . . نصبنا الخيمة بين النخيل . . لعبنا وأكلنا ومرحنا» .

وبعد أن أنهى فرضه المدرسي ، غابت عن ذهنه قليلاً الأصوات التي سمعها قبل قليل ، فلعب واكل ومرح مع شاكرين تحت عريشة العنب ، إلى أن حان موعد الإفطار الصائمين فتوالت الانفجارات والحمم التي تقذف بها الطائرات من الجو والبر والبحر وارتج عليهم أن يعرفوا دوي مدفع الإفطار من دوي القذائف والصواريخ . وفي الهزيع الأخير من الليل قفز يحيى من فراشه كالملدوغ ومضى إلى باب البيت ثم عاد منه إلى بلقيس وصاح :

- صاروخ . . صاروخ .

فتكسر زجاج البيت . . وتمزقت الستائر . . وانكسرت سندانة اللبلاية . . وهبت من الجوار عجاجة عظيمة دفنت الحديقة بأكوام من التراب أصابت جميع دجاجات هنية بالاختناق ماعدا الديك الذي نجا من موت محقق . . وبعد انبلاج الصباح وجدوا الصاروخ وقد أصاب بناية حكومية تقع على مقربة من بيتهم فقالت بلقيس لهنية :

- لقد قفز يحييا من فراشه قبل أن يسقط الصاروخ
بلحظات .

وقال توفيق :

- لقد سمعته يصرخ .. صاروخ .. صاروخ .

الفصل الثالث

حلم + علم

عادت اللبلاية التي زرعتها بلقيس في البيت ، إلى مكانها تحت صورة زوجها منصور ، في سندانة جديدة وتراب جديد ، وحملت بلقيس ساقها التي لم تنكسر إلى الأعلى وأزجته على سكة ستارة النافذة ، وهي المكان الذي تعرشت الأوراق فيه ونمت وترعرعت وغطت مسافة طويلة قطعتها بين الصورة والسقف في ثماني سنوات بدأت منذ أن جاءت بها برعماً من لبلاية البدالة ، وكان ذلك بعد ثلاثة شهور على ولادتها يحييا ، وقبل نصف شهر من انتهاء العدة لوفاة زوجها منصور .

رفع يحييا نظره إليها وابتسم لها ، ثم خفضه إلى دفتر الحساب ، ثم رفعه مرة أخرى إلى اللبلاية وابتسم ، وراح يتمتم مع نفسه بأرقام يكتبها في دفتره بخط جميل . وكانت شاكرين تردد خلفه الأرقام بصوت أعلى ، سأت هنية :

- ألا تتغديان؟

قال يحييا :

- مع توفيق .

قالت :

- ولكنه لم يعد بعد .

قال :

- بل عاد . . إنه يفتح الباب .

فابتسمت هنية وقالت :

- وأنت صغيرة كنا نظن أنك أحرس اللسان . . وها أنت

تحل الحساب ، وتقرأ كالبلبلان ، وتسمع أشياء لا نسمعها .

فسأل يحيى :

- ما هو الغداء؟

فقالت شاكرين :

- كلشي وكلاشي .

قالت هنية :

- إنه فاصوليا . بيبي .

دخل توفيق ، فنخلع حذاءه وغسل وجهه وقال :

- أكلّ يوم فاصوليا؟

قالت له أمه :

- وماذا بها؟ إنها طيبة .

قال توفيق :

- علمت ذلك .

قالت هنية :

- إذن ماذا تريد؟

قال توفيق :

- سأكلها وأمرني لله .

سمت شاكرين باسم الله الرحمن الرحيم ، ثم مدت يدها
إلى الطعام ، وقالت لتوفيق :

- لماذا لم تطلع من التلفزيون؟

ضحك الجميع ، فقال توفيق :

- ليس في كل يوم أطلع .. من .. التلفزيون .

فقال شاكرين :

- أهدأ تطلع من التلفزيون؟

فضحك توفيق مرة أخرى وقال لها :

- اسكتي وكلي .

فظلت تأكل ، لكنها لم تسكت .. إنما التفتت إلى يحيى

وقالت له :

- هل غسلت يديك قبل أن تأكل؟

فقال لها بعصبية :

- وأنت أمي قابل؟

فقال شاكرين :

- أمك بعدها بالدائرة .. هاك .

ثم وضعت في طبقه قطعة صغيرة من الفلفل الأخضر ،

وقالت له :

- لا تظل تصفن .. ترة أكل أكلك .

طبق يحيى كان فيه بستان .. وبلبل فتان .. يغني على

الأغصان .. والخوخ والرمان .. والورد والريحان .. وفيه رجل

وامرأة ، وفيه زهرات حمرتها قانية .. ومؤطرة بورقات خضر زاهية .

- يحيا .. أين سرحت؟

فصاح يحيا بشاكرين :

- كم لغوية أنت .. ماذا تريدین؟

قالت بلقيس التي كانت قد دخلت لتوها :

- لا تنهرها يا ابني .. إنها تحبك .

أخذ يحيا قطعة خبز وخرج إلى الشمس الساطعة ، فخرجت شاكرين خلفه . جلس قرب شجرة الياس ، فسمع صوت ملائكة بعيداً خلف نهاية الزقاق المنعطفة إلى الشارع العام ، فتذكر كيف يقف توفيق قرب سياج السطح ويتحدث إلى ملائكة بصوت خفيض عندما لا يكون هناك في الجوار أحد .. كان يراهما دائماً يفعلان ذلك عندما يهربان هو وشاكرين من نوم القيلولة ليلعبا الختيلة فوق السطح . دخلت شاكرين راكضة من باب المطبخ وصاحت بتوفيق :

- ملائكة . ملائكة . ملائكة .

فخرج توفيق وصاح بها :

- ما بك؟ هل جننت؟ ما شأنني بها؟

ذهلت شاكرين ، وتضرج وجهها بالحمرة ، ثم قالت بصوت

مستغرب :

- أيا جارة .. أيا جارة .. أيا جارة .. تعالي .. تعالي .

فابتسم توفيق بعطف وخرج إلى الشارع . ثم أدخل يديه

في جيبي سرواله ووقف ينظر الى نهاية الزقاق حيث كانت

ملائكة وصديقتها البدينة تضحكان وهما تدلفان إليه .

(١٥)

دخل يحييا وعاد إلى كتاب الحساب . . رفعه من الأرض
وقال لأمه :

- هذا الكتاب تمزق غلافه ، والمديرة قالت لا يجوز تغليفه
بورق الهدايا الغالي ، بل بورق الصحف والمجلات .

فأخذته بلقيس وفتحته وقالت :

- وهل هذا كتاب الحساب؟

قال يحييا :

- نعم .

قلبتة بلقيس وصمتت قليلاً ، ثم قالت باستغراب :

- هل أخذتم جدول الضرب؟

قال يحييا :

- نعم .

قالت :

- لماذا لم تطلب مني أن أسمعه لك إذن؟

قال :

- أعرفه .

بلقيس قالت :

- تعرفه؟
- قال :
- نعم .
- قالت :
- فكم حاصل ضرب ستة في سبعة؟
- صاحت شاكرين :
- أربعة .
- فقال يحييا بغضب :
- اثنان وأربعون .
- قالت بلقيس :
- وحاصل ضرب ستة في ثمانية؟
- صاحت شاكرين :
- أربعة .
- فغضب يحييا وصاح :
- بل ثمانية وأربعون .
- قالت بلقيس :
- وكم حاصل ضرب ...
- فضاق يحييا بأمه ذرعاً وقال :
- أنا لا أريد أن تسمعي لي جدول الضرب . . وإنما أريدك
- أن تغلفي لي هذا الكتاب بورق جديد .
- بهتت بلقيس وقالت :

- وهل توفيق من حفظك جدول الضرب؟

رفع يحيى نظره إليها وقال :

- عندما أقرأ يكفي أن أنظر إلى الشيء فأحفظه غيباً .

ارتجف قلبها واقشعر بدنهما من الرهبة وتحولت جدران البيت في لحظة واحدة إلى بياض تغوّش في عينيها ، ثم رفعها من مكانها ورمى بها إلى المطبخ وهي تلهج :

- هنية .. هنية .. أين الحرمل؟ هذا الولد يمكن

انجذب .

نفضت هنية يديها من الماء ثم مسحت يديها المبللتين بجانبيّ دشاقتها البولين ذات اللون الكحلي الغامق المزخرف بورد منثور . قالت :

- ابنك ليس مجنوناً .

قالت بلقيس وهي تشعل عوداً من البخور وتسحب هنية

من يدها :

- إني خائفة عليه .. إنه يحفظ من المرة الأولى ، ويسمع

أصواتاً لا نسمعها ، ولا يكف عن النظر إلى السماء .

قالت هنية :

- يمه ، لا تخيليني .

فأخذتها بلقيس إلى يحيى وأخرجت من حقيبته كتاباً ،

وقالت له :

- عدد لي الحروف الهجائية .

فأخذ يحيا يعددها وهو ينظر الى خيط الدخان المتطاير من
عود البخور :

- همزة ألف باء تاء ثاء جيم حاء خاء دال ذال راء زاي
سين شين صاد ضاد طاء ظاء عين غين فاء قاف كاف لام ميم
نون هاء واو ياء .

فعادت لتقول له :

- عدد لي الأشهر القمرية .

فقال :

- هي اثنا عشر شهراً : محرم وصفر وربيع الأول وربيع
الثاني وجمادي الأولى وجمادي الآخرة ورجب وشعبان
ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة .

فقالت :

- عدد لي قارات العالم ومحيطاته .

فقال :

- قارة آسيا وقارة أفريقيا وقارة أوروبا وقارة أمريكا الشمالية
وقارة أمريكا الجنوبية وقارة أستراليا والقارة القطبية الجنوبية . أما
المحيطات فهي : الهادي والأطلسي والهندي والمنجمد الشمالي
والمنجمد الجنوبي .

فقالت له بلقيس :

- فاقراً لي سورة الزلزلة .

فراح يقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم «إذا زلزلت الأرض زلزالها .
وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ما لها . يومئذ تحدث
أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليرَوّوا
أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال
ذرة شراً يره»

- وآية الكرسي؟

بسم الله الرحمن الرحيم «الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا
تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا
الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا
يُحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات
والأرض ولا يؤدّه حفظهما وهو العلي العظيم»

- عدد لي الأحرف القمرية .

- ابغ حجك وخف عقيمه .

فتحت هنية فمها عجباً وقالت :

- شوفي! الشورجة أحسن لو كلية الطب؟

فقال بلقيس :

- أخاف شمرتي سرته بالشماعية .

قالت هنية :

- الشماعية لعدوه . . هذا الولد ماء بارد للقلب .

قالت بلقيس :

- قلبك أنت . . أما أنا فجزعي عليه كبير .

قالت هنية :

- لا تجزعي يمة .. إنه ذكي .. هذا كل ما في الأمر .

فأطرقت بلقيس ملياً إلى الأرض ، ثم قالت :

- لماذا قالت عنه ختام إنه ابن آخرة؟

قالت هنية وهي تنهض :

- يا لها من امرأة .. أهذا كلام يُقال من أم لأم؟!

فقالت شاكرين بلا داع :

- كلشي وكلاشي . غدانا كلشي وكلاشي .

ثم انكبت على أعواد الحياكة ، ووضعت ساقاً فوق ساق ،

وراحت تردد بانفعال واضح وهي تسحب خيطاً طويلاً من الكبابة :

- ستة في ستة يساوي أربعة .. خمسة في خمسة

يساوي أربعة .. سبعة في سبعة يساوي أربعة .. أربعة في

أربعة يساوي أربعة .

فصاح بها يحيا :

- كفى ، .. أين أمك؟

فدخلت هنية إلى غرفة المعيشة وهي تحمل صينية

العدس ، وقالت لبلقيس :

- هذه الرسالة التي بعث بها صلاح إلى توفيق من

السويد ، اقريئها لي مرة أخرى ، يا بلقيس .

تناولت بلقيس الرسالة وفضتها ، ثم راحت تقرأ على

مهل :

- «أخي العزيز .. تحياتي لك وللجميع .. أنا بخير والحمد لله .. أنا في السويد ، ونجاح في الدغارك ، وفلاح في أستراليا . مشتاق لبيتنا كثيراً .. ولكم .. وأمي الحبيبة .. أتمنى أن أراكم وأجلس بينكم وأسمع أصواتكم وأصوات البلابل والعصافير العراقية التي لم أعد أسمعها على الإطلاق في هذه البلاد الباردة ، فدخلت إلى عالم الثلوج وطال بي السكوت إلى درجة أنني لم أعد أتحدث حتى إلى الآخرين .. وهم على أية حال لا يتحدثون إلينا ولا يريدون منا الكلام ، ولا ينظرون إلينا . لا تقلقي يا أمي ، فأنا بخير .. قبلاتي وتحياتي مرة أخرى ودمت .»

صلاح

قالت هنية والدموع تجري من عينيها وتتساقط فوق العدس الذي كانت تغربله من الزوان والشوائب :

- أويلاخ .. صار طشارنا ماله والي .
فرددت شاكرين خلفها :

- أويلاخ .. يابة .
ثم رفعت نظرها إلى النافذة وقالت بانفعال :

- شوفوا .. شوفوا .
- شكو؟
- مطر . مطر .
فقالت هنية وهي تكفكف دموعها بطرف فوطتها :

- أتمطر في عز الصيف؟ .. فدواتك ربي .. حتى الجو

تخبل!

المطر كان يزخ ويتبعثر في الهواء ، ثم يحط على الحشائش وفوق رؤوس الكتاكيت الجديدة التي اشترتها هنية بدلاً من الدجاجات التي ماتت في عجاجة القصف ، فهاجت وماجت بحثاً عن ملاذ فوق ظهور الكتاكيت الأخرى وبين الأعناق ، ولذت الحمامات بين سعفات النخيل هرباً من الماء المنهمر ، وخرج يحيا إلى الحديقة فرأى ملايين الأسنان اللبنية تطير مع حبات المطر ثم تسقط في بطون الأشجار أو تحط فوق قمرية العنب .

ومضت الأيام وجاءت الأيام ، ثم رحل صيف وجاء خريف ، ثم رحل خريف وجاء شتاء ، ثم رحل شتاء وجاء ربيع ، وتفتحت أكمام الورد من جديد ، وجاء السنونوليبني عشه الأزلي في الزاوية الواقعة بين جدارين خارج المطبخ فراحت شاكرين تغني له :

- أسود فحم . بطنه شحم . راسه جرص . ذيله مقص .

وانعقد الحصرم بين أغصان دالية العنب التي تقطف هنية أوراقها اللماعة باستمرار من أجل لفها في قدور الدولة ، وعاد الرز يتبعثر طعاماً فوق ظهور الدجاجات التي كانت كتاكيت ، وأمطرت السماء في صيف مجنون جديد ، وتبلل يحيا بماء المطر .

على سطح المنزل . . وفي آخر ليالي الصيف الجهنمي الذي
انقضى قبل اكتمال القرن بثلاثة شهور كانت شاكرين تحوك
قميصاً بني اللون تحت ضياء بدر الرابع عشر من شهر رجب ،
وتغني مع نفسها بصوت خفيض جداً بينما بلقيس ترش
البلاطات بماء بارد سرعان ما يتبخر في حرارة الليل اللاهبة
فتفوح من الأرض رائحة تراب مبتل بالماء وتنتشر في أرجاء
المكان طرية شهية ، وكأنها رائحة طين محفور . هنية قالت :

- دعي شاكرين تساعدك .

قالت بلقيس :

- ألا تسمعنيها تغني وتحوك؟

قالت هنية :

- لا أدري كيف أدعها تكف؟

قالت بلقيس :

- دعيها تكمل غزلها . . هذا يجعلها سعيدة .

النجوم عادت تمشي في السماء . . ورأى يحيى شاكرين
تنهض من مكانها على الفراش الممدود على الأرض وتحنني
عليه لتغطيه بشرشف أبيض منقوشة عليه أزهار عباد الشمس

الصفراء ، ثم استدارت ببطء نحو جبل الغسيل الممدود على طول
السطح ورفعته بيدها ومرت من تحته وتوجهت نحو السياج ورمت
بنفسها من هناك إلى الحديقة . سمع يحييا صوت ارتطامها
بالأرض ، وخاف من أن يذهب مع شاكرين إلى الجنة . . قال
لنفسه إنه لو نزل إلى الحديقة ووجدها ميتة فسيتمسك بها جيداً
ولن يدعوهم يأخذونها بعيداً عنه حيث تكون خلف النجوم مع
بنات نعش و موتى كثيرين . . هو يريد أن تبقى معه إلى الأبد
وأن لا تكون خلف النجوم مع أبيه الميت وموتى كثيرين قد
يتساقطون في أي لحظة إذا ما سقطت النجوم .

بلقيس قالت له مراراً كلما سألتها : «أين أبي؟» :

- أبوك هناك . . في الجنة .
- وكيف ذهب إلى الجنة؟
- الله هو الذي جعله يذهب هناك .
- وكيف مات؟ هل سقط من السطح؟
- كلا . . سقطت عليه قنبلة .

اعتقد يحييا أن الأموات هم الذين ماتوا فقط ، وأن غيرهم
لن يموت أحد ، ولم تشعره هذه الفكرة بالراحة مطلقاً ، بل وجد
فيها ظلماً كبيراً قد لحق بأبيه ، فقال لأمه :

- ولكن لماذا مات أبي؟
- قلت لك . . لقد سقطت عليه قنبلة أثناء الحرب ، وكان
عمره يوماً واحداً فقط .

- يعني لو لم تسقط عليه القنبلة ، هل كان سيعيش إلى الأبد؟

- لا أحد يعيش إلى الأبد .

- ألن نعيش نحن إلى الأبد .. أنا وأنت وشاكرين وتوفيق وبسبي هنية؟
- كلا .

- هل سنموت كلنا ، فلا يرى أحدنا الآخر؟

- كلا .. اسم الله عيني .. ليس الآن ، ولكن بعد عمر طويل ، إن شاء الله .

- ولكنني أريد أن أعيش إلى الأبد .. ولا أموت .

- حسن يا بني .. ستعيش إلى آخر الزمان .. ولن تموت .
- أحقا يا أمي ؟

- حقا يا ولدي . واسمع هذه القصة .

وروت له بلقيس قصة من قصص ألف ليلة وليلة روتها لها أمها وهي صغيرة عن رجل قالت اسمه بلوقيا له صاحب اسمه عفان ، عاش قبل زمان محمد (ﷺ) وأراد أن يكون سائحا في الزمان حتى يجتمع به الرسول ، فقالت بلقيس قالت أمها قال صاحبه عفان إن زمان محمد بعيد ، وإنه يُبعث في آخر الزمان ولا يجتمع به إلا من يعيش ذلك الوقت ، ولا يعيش ذلك الوقت إلا من شرب ماء الحياة ، ولا يحصل على ماء الحياة الذي يمهلنا إلى آخر الزمان إلا من دخل بحر الظلمات ، ولا

يمكن ذلك إلا بالحصول على خاتم سليمان عليه السلام ، ولا يمكن الوصول إلى خاتم سليمان إلا بواسطة ملكة الحيات التي إذا ما احتلنا عليها تدلنا على عشب كل من أخذه ، ودهن به قدميه مشى على أي بحر فلم تبتل له قدم ولم يغرق ، فإذا ما أخذناه وعبرنا به السبعة أبحر سنصل إلى مدفن سيدنا سليمان ، وهو المكان الذي لا يقدر أحد من أصحاب المراكب أن يصل إليه . وهناك انقادت له الأنس والجن والطيور والوحوش وجميع المخلوقات فنستطيع حينئذ أن نفعل ما نريد .

قال يحييا :

- وهل استطاع ذلك الرجل الحصول على الخاتم لكي لا

يموت؟

فقالت بلقيس قالت أمها قال بلوقيا إن عفان عندما تقدم إلى التخت الذي كان سيدنا سليمان عليه السلام نائماً عليه ويده اليمنى على صدره والخاتم في أصبعه واقترب منه ، طلعت عليه من تحت التخت حية عظيمة أفرزته وزعقت به زعقة عظيمة فارتعد المكان من صيحتها وصار الشرر يتطاير من فمها ، فقالت بلقيس قالت أمها قالت الحية لعفان إن لم ترجع أهلكك ، فاشتغل عفان بالأقسام والعزائم ، ولم ينزعج من تلك الحية ، فإذا بالحية تنفخ عليه نفخة عظيمة كادت تحرق ذلك المكان ، ثم قالت له : ويلك! إن لم ترجع أحرقتك ، فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من الحية طلع من المغارة . أما عفان فإنه

لم ينزعج وتقدم إلى سيدنا سليمان عليه السلام ومد يده ولس الخاتم وأراد أن يسحبه ، فإذا بالحية تنفخ على عفان وتحرقه وتحوله إلى كومة رماد .

فقال يحييا :

- وماذا حدث لبلوقيا بعد ذلك ، هل مات؟

قالت بلقيس قالت أمها إن بلوقيا وقع مغشياً عليه من هول الأمر . فلما أفاق صار يبكي بكاءً شديداً وندم على ما فعل وتفكر قول ملكة الحيات : «هيهات أن يقدر أحد على أخذ الخاتم» . ثم سار إلى شاطئ البحر كي يدهن قدميه بماء العشب الذي يمكنه من المشي على الماء من دون أن يغرق أو تبتل قدماه ، وعاد إلى مصر بلاده .

قال يحييا :

- وهل مات بعد ذلك؟

ضحكت بلقيس ، وقالت :

- قالت الحكاية انه عاد الى مصر بلاده مشياً على الماء ولم تقل انه مات ، ولكن كان هناك على الجبل وبين الأعشاب عشبة الخلود التي كل من أكل منها لا يموت . لو كان بلوقيا قد اخذ منها لكان أفضل له من عشبة المشي على الماء .

قال يحييا :

- إذن لماذا لم يرجع الى الجبل مرة اخرى ويأخذ تلك

العشبة؟

قالت بلقيس قالت امها إنه عاد إلى مصر بلاده ، ولم تقل
أنه عاد إلى الجبل . حزن يحيا لذلك أشد الحزن ونام وهو نادم
على ذلك أشد الندم .

في أول أحد من شهر شعبان الذي تلا شهر رجب وسبق
شهر رمضان كانت ملائكة وأخواتها يملأن الحديقة بالشموع
ويحملن أطباق الرز المحلى بالسكر للجيران . بلقيس قالت :

- انظر يا يحييا .. أنا نذرتك من الله في يوم زكريا ..
واليوم زكريا .. كيف نعمل؟

هنية قالت :

- لا عليك .. إبريقه وإبريق توفيق موجودان .. وكذلك
أباريق صلاح ونجاح وفلاح ، وجرة شاكرين ، وشجرة الياس
موجودة ، وورق البرتقال موجود ، وكذلك الرز والطحين .

قالت بلقيس :

- بقيت الشموع .. هل نطلبها من الجيران؟

قال توفيق :

- يوجد من الراتب بقية .

توفيق عاد من بعيد وبيده ستة شموع ، فمر بالقرب من
كحيلة التي كانت تقف كعادتها بين الأشجار خلف سياج
منزلها وتلم رموشها السوداء الكثيفة حول حدقتي عينيها
وتتفرج على الرائح والغادي وتضحك .

كانت المسافة من بيت ملائكة إلى بيته صامتة وبيضاء منذ شهور ، فلما اشتعلت الشموع تلاشت تلك المسافة واحترقت ، وأطلت ناي برأسها من السياج ومدت يدها طبقاً من الحلوى أضواء بين أغصان شجرة النارج كالشمس المشرقة ، فهرعت إليه شاكرين وكادت الأغصان تفتقاً عينيها ، فنهرتها هنية وأمرتها بالعودة إلى مكانها قرب يحيى .

ضحكت ناي وهي تنظر إلى وجه توفيق الذي خلا فجأة من الشوارب ، وانتظر توفيق لحين حلول الليل وانقطاع الكهرباء فصعد إلى السطح وصعدت ملائكة وأصبحت المسافة بين يدها ويديه أقل مما يعرقله السياج . . صامتة ظلت ملائكة ، لا تجرؤ على قلب صفحة واحدة من دفتر الصمت ، فمس توفيق يديها وقال :

- من المحتمل أن أحبك .

ثم احتضن يدها كاملة بين يديه وقال :

- وأن أقبلك أيضاً . .

فقال توفيق :

- لماذا لا تتكلمين؟ . . أصائمة صوماً خرسانياً؟

قالت : كلا .

قال : تكلمي إذن .

قالت له :

- ما أجمل شعرك .

فقال توفيق :

- سيشيب بعد سنين .

قالت ملائكة :

- ما أجمل خديك .

قال توفيق :

- سيدويان بعد قليل .

قالت ملائكة :

- ما أجمل عينيك .

قال توفيق :

- هما أول ما يأكلهما الدود بعد أن أموت .

ضحكت ملائكة وقالت :

- مجنون .

قال :

- مجنون بك أنا .

قالت ملائكة :

- ما يدريني؟

قالت توفيق :

- بل تدرين .

قالت :

- إذن أين كنت؟

فاقترب برأسه من رأسها ومست وجهه ذؤابات شعرها ،

فتمرغ فيها وقال :

- هنا .

وفاحت من شعرها رائحة عطر خفيف وصعدت الدماء
ساخنة إلى أذنيه فشهقها بعمق وهو يموت بينما أسورة ملائكة
تصلصل حول عنقه وكتفيه . واشتعلت شموع الزكريا في ظلام
الحديقة . . وحولها دارت شاكرين وقهقهت وظلت تدور وهي
تضع قدميها في بابوج أمها هنية وشعرها في قرديلة بيضاء
اللون وصوتها يصل إلى أعالي الهواء في سطح البيت :
يا زكريا عودي عليّ
كل سنة وكل عام ننصب صينية .

وجدت بلقيس نفسها تطيل النظر إلى نافذة بيت عبد الملك من خلف رذاذ الماء المتطاير بين وجهها والهواء وأوراق أشجار النارج التي تحاذي السياج الفاصل بين البيتين . كان الرذاذ بارداً يملأ الجو برائحة فقاعات ماء تتفجر عن ذرات من التراب تطايرت عن أوراق الأشجار واختلطت بذرات الماء ، ثم ذابت بعذوبة وفاحت رائحتها الطيبة من طيات الهواء المرشوش بالماء .

مر أحد ما من باب البيت إلى الحديقة ، فشعرت بلقيس أن عبد الملك هو ذلك الشخص الذي خرج ثم توقف قليلاً ، وصممت خشخشة الأوراق بين يديه فرفعت بلقيس رأسها إلى أعلى وهبطت بيدها اليمنى إلى أسفل ، وأصاحت السمع جيداً إلى ما خلف السياج ، وظنت أنه يقرأ في صحيفة بصوت عال ، وطار بلبل يضحك وحط على كتائب النافذة ، ثم صعد عليها واحدة واحدة لسبع مرات متتالية عدتها بلقيس من مكانها في الحديقة وهي ساكنة تنظر إلى البلبل وتمعن في إصاخة السمع . وفي المرة الثامنة طار البلبل وتوارى خلف أغصان النارج من جهة حديقة عبد الملك فأغلقت الماء المتدفق إلى أرض الحديقة

وتكورت على نفسها كالقنفذ ، وسمعت صوته العالي يأتي من مكان تحس به كأنه الأرض التي تقف عليها ، وعرفت أنه يلفت نظرها إليه بذلك الكلام الغريب الذي يشبه المسرحية وأنه تعمد الخروج إلى الحديقة لكي يمثله هناك ويتدرب عليه في الهواء الطلق ، وزال عنها في تلك اللحظة خوفها أو توجسها منه ، وشعرت بذلك الصوت المنغم العالي لا يلامس السياج قبل الوصول إليها ، بل يخاطبها مباشرة ويلتف حولها كخيوط تتطاير في الهواء :

- كيف الحال؟ كنت أنوي المغادرة .

- آه ، أجل ، من الأفضل أن تغادري لأنه إذا خسرت فلن أتحمّل ذلك . حديقتي بالطبع صغيرة جداً وهي من الطراز الإنجليزي المتواضع ، لكنها كافية بالنسبة لي ولأزهار السوسن . ماذا عن حديقتك؟

- لا تتغنّ بما لا تملك . حديقتي هي حديقتي . . وهي بالتأكيد ليست من الطراز الإنجليزي المتواضع . أزرع الباذنجان والقرع ولكرنب ، وأربي أزهار السوسن المتوسطة ، ولا علاقة لي بمناظرك ذات الألوان المائية .

- لست ، على أية حال مصابة بعمى الألوان .

- عفواً؟!

- آسف جداً ، لا أعرف ماذا حل بي؟ شخص ما ابتكر نسيجاً رائعاً ومادة ، كما تقولين ، ثم أهمل كل ذلك تماماً .

- سأذهب . لا يوجد ثمة سبب يدفعني للبقاء . ما الذي كنت أتوقعه؟ لا أعرف كيف يسمي بعض الناس أنفسهم علماء؟

- قد أكون مغروراً يا أنسة جوسلين ، وربما أكون قد توقعت الكثير ، لكنك لا تستطيعين أن ..

- كيف كان بإمكانك أن تتغاضى عن شيء أساسي كالسوق؟

- أنت تعرف أنه كان بإمكانني أن أقول الشيء نفسه عنك لو كنت من النوع الذي ..

- قد يكون اللون مدهشاً ، ولكن ما من شيء تحته!

- لقد شيدت قلعةً دون راية .

- أنا أهتم بما هو أكثر من الأشياء البراقة ، شكراً لك .

- وقد تربين الكالوشي أيضاً .

- أنا مربية عظيمة ، يا سيد .

- وأنا كذلك يا سيده .

- لقد كدحت في الحقول على امتداد ثلاثين عاماً يا

سيدي .

- وأنا كذلك .

خشخشت الصحائف مرة أخرى بين يديه ثم نهض من الأرض واقترب أكثر من السياج ، فنهضت بلقيس مسرعة من مكانها ، وهي تشعر بذلك كله يحدث على مسافة متر واحد

منها . وتملكها الخوف مرة أخرى . . فانسلت بدون ضجيج من
نجيل الحديقة إلى داخل البيت ، وتركت باب المطبخ مفتوحاً
ناسية أن تمحو ضحكة خافتة ظل أثرها مرسوماً على شفيتها
لعدة دقائق بعد ذلك قبل أن تذوي وتختفي لتحل محلها
خيوط غير مرئية من الأشواق ظلت تلتف على روحها وترافقها
وتجعلها تشعر بالبهجة لعدة أيام بعد ذلك . تاق قلبها في تلك
الأيام القليلة إلى الذهب لمتجر التحفيات الثمينة ، وتفقد أنية
الكرستال المطعمة بالشذر إن كانت لا زالت تنتظرها هناك ،
ولكن هذا التوق الذي أحسته ترفاً رقيقاً كملمس المخمل سرعان
ما أربكها وأشعرها بالخوف فأجبرته في كل يوم على تأجيل
نفسه ليوم غد حين تراجع وأنطوى وابتلعت الأيام تلو الأيام .

الفصل الرابع

What Ever It Takes

طلبت الست رباب من يحييا أن يقرأ الدرس الجديد فقال :
 نام خالد فى فراشه مبكراً لينهض مبكراً ، وقد رأى فى منامه
 غابة فيها أشجار وحيوانات وطيور كثيرة فمشى فى الغابة ورأى
 الفيل والزرافة والقرد ، ورأى الأسد والنمر والفهد ، وظل خالد
 ماشياً بين الأشجار ينظر إلى الحيوانات والطيور حتى غابت
 الشمس فأراد الرجوع إلى البيت فلم يقدر لان الغابة صارت
 مظلمة فهل تعرفون ماذا فعل خالد ؟ استيقظ من نومه فوجد
 نفسه فى سريره .

قالت الست رباب ليحييا إنه ملك الصف فى المطالعة
 والإنشاء وقواعد اللغة العربية ، وطلبت من تلاميذها أن يكتبوا
 الدرس الجديد (خالد فى الغابة) فى الدفتر ثلاث مرات ، ومن
 يحييا أن يحفظ قصيدة حماسية عن أم المعارك يتلوها فى رفعة
 العلم ، فقامت السماء وادلهمت بلون رمادي راثته تشبه
 رائحة الرحلة التي يجلس عليها . . كلاهما له رائحة خشب
 رطب وورق طرس مستعمل ومطاط مفتول تبقى من أطراف
 مسحة تمحو وتمحو ولا تكف عن المحو لما شخبط القلم من
 كلمات خرجت عن الخط المستقيم ، وفي أقصر الطرق المؤدي

بين بيتهم والمدرسة سار يحيا وظل يمشي ويمشي ويمشي ،وحين
كاد يصل إلى بيتهم من الطريق المختصر الذي يجتاز خرابة
توصل بين شارعين ، اصطدمت الغيوم ببعضها البعض ،
وأصدرت برقاً تعرج في خط من السماء إلى الأرض وكاد
يصيب من يحيا مقتلاً لولا أنه فر راكضاً إلى باب البيت فنجا
من الصواعق وأصوات الرعد المفزعة التي أرسلتها عليه فجأة
السماء .

وهو داخل البيت اشتد صوت الريح وهي تدفع الغيوم إلى
اتجاه غير معلوم .. ثم تحول هزيم الريح إلى صفير متصل
وضحكات .. الضحكات اختلطت مع طرق على الباب ..
اقترب يحيا من النافذة ، ونظر إلى الغيوم .. فكانت قد تفرقت
قليلاً ، وأصبح ضوء الشمس يتسلل من فراغات في السماء
كأنها فتحات انفرجت ما بين أصابع الكفين . ثم اتسعت تلك
الفتحات وسطع الضوء أكثر ، ففتح يحيا النافذة وسحب الستارة
قليلاً عن أغصان شجرة اللباب الساجية فوق صورة أبيه . وجد
امرأة تقف عند الباب وتناديه ، وكانت ترتدي معطفاً أبيض
وربطة رأس بيضاء .

عندما خرج يحيا إلى الحديقة كان المطر قد توقف وعربات
كثيرة تهبط من السماء تحمل نساءً متشابهات يرتدين معاطف
بيضاء وربطات رأس بيضاء . نظر إلى المرأة التي نادته ، فكانت
يذاها طويلتين جداً جداً ، وتحمل بين أصابعها قطعة طباشير

بيضاء . قالت المرأة :

- نحن هنا من أجل التلقيح الثلاثي .. ألا يوجد أحد في

البيت؟

قال يحييا :

- كلا .

قالت المرأة النحيلة :

- ألا يوجد طفل غيرك في هذا البيت؟

قال يحييا :

- بلى ، شاكرين .

قالت المرأة :

- وأنت ، ما اسمك؟

قال :

- يحييا .

فالتفتت المرأة إلى شبيهتها وقالت :

- يحييا ؟

فقالت المرأة الثانية شيئاً ما ورفعت يدها الطويلة إلى

الباب ، ورسمت عليها علامة ضرب . . ثم ظلت المرأة واقفة

عند الباب فوجد يحييا النساء المتشابهات ذوات المعاطف

البيضاء وربطات الرأس البيضاء يضعن علامات الضرب على

الأبواب . . واستغرب يحييا وتساءل مع نفسه لماذا الزقاق مليء

بأولاء النسوة؟ ولماذا تضع هذه النسوة علامات الضرب على

الأبواب؟ يحييا سأل هذا السؤال للمرأة التي كانت لا تزال واقفة قرب بابها ، فرفعت يدها الطويلة جداً إليه ودفعته وقالت :

- ادخل إلى البيت . . إنك تدوس على ظلي .

قال يحييا :

- لا يوجد ظل . . فالدنيا غيم .

فقال ، وصف من أسنانها البيضاء يظهر للعيان :

- إذن الدنيا كلها ظلي .

يحييا دخل البيت لا يلوي على شيء ، وسرعان ما انتهى

اللغظ واختفت الضحكات وحل محلها عويل وصراخ وصوت

قرآن يُقرأ في مكان قريب ، فقال يحييا لبلقيس وهنية وشاكرين

القادمات إليه :

- أين كنتن؟

قالت هنية :

- في العزاء .

قال يحييا :

- من مات؟

قالت :

- أبو حميد . . وكيل الحصة التموينية .

قال يحييا لأمه :

- هل رأيت علامة الضرب التي وضعتها المرأة البيضاء

على باب بيتنا؟

قالت بلقيس :

- كلا لم أرها . هل كنت نائماً؟

قال يحيى :

- للتو عدت من المدرسة .

ثم توجه الى النافذة التي كان ينظر منها قبل قليل فوجد السماء لا تزال ملبدة بالغيوم ، وحين خرج من البيت وجد علامات الضرب على أبواب البيوت فقال لنفسه : «إذن لم أكن أحلم» .

(٢٠)

جلس يحيا تحت صورة أبيه المحاطة بأغصان اللبابة العملاقة وهو ينظر من النافذة إلى عش السنونو الذي اكتمل واستوت فيه الأتشي ، ويردد بصوت خفيض أسماء الله الحسنی التي كان حفظها غيباً في حفل أقامته المدرسة قبل يوم المولد النبوي . . وبعد أن انتهى من ترديدها راح يردد بصوت أعلى :

طيبة أسامة ، مريم سلام ، سرى محمد ، رسل وائل ، حنان قحطان ، آيات عباس ، رند سعد ، ضحى مصطفى ، تارة فؤاد ، هدى طالب ، زينة رائد ، نازك فوزي ، زينة أحمد ، نور عامر ، دينا أياذ ، إسراء حسين ، رند شاكر ، سرى علي ، إبراهيم دريد ، محمود عماد ، ياسين محمد ، مصطفى سعد ، حسام علي ، كمال عبد الرزاق ، محمد قيس ، حكم عبد الرحمن ، أسامة محمد ، علي فارس ، ليث علي ، علي حسان ، محمد معز ، محمد حيدر ، عبدالله ناصر ، عمر علي عبد الحسين ، سدين نوفل .

قالت بلقيس :

- ما هذه الأسماء؟

قال يحيا :

- هذه أسماء طلاب الصف . . ما معنى اسم سدين ،
ماما؟

ضحكت وقالت :

- إذا لم تجد شيئاً تحفظه غيباً تحفظ أسماء طلاب صفك؟
هيا هات لي واجب العلوم ، واسأل توفيق عن معنى اسم
سدين .

فغادر يحيا نافذته ، وتعشر بسندانة اللبلاية حتى اهتزت
وطرحت أوراقاً ميتة إلى الأرض . . كاد هو أيضاً أن يسقط ثم
تلافي ذلك ، واستوى على الأريكة قريباً من أمه . قالت بلبقيس :
- أكمل العبارات الآتية : الأرض تشبه . . ؟

- الكرة .

- الأرض تتكون من . . ؟

- يابسة وماء .

- اليابسة تتكون من . . ؟

- صخور وتراب .

- الصخور تتكون من . . ؟

- معدن واحد أو عدة معادن .

- والآن أين تسبح هذه الكرة؟

- في الفضاء .

- وماذا يحيط بها؟

- النجوم .

- بل الهواء ، يا ابني .
- النجوم ، يا أمي .
- مكتوب في كتاب العلوم : الهواء .
كتاب العلوم نظر إليه يحيا ، فقال له : إنه الهواء .
- نعم يا أمي ، إنه الهواء . أما النجوم فكثيرة جداً وأضاف
لثلاثا تسقط .
فاحت قريباً من أنفه رائحة عدس وشلغم يُسلقان ، وقالت
له شاكرين :
- يا يحيا ، تعال تعش .
قالت أمه :
- ما أسرع ما يأتي الليل !
أشعل توفيق الفانوس ، وقال يحيا لأمه :
- ما هذه الدنيا؟! نهار وليل . . ثم ليل ونهار . . لماذا لا
تكون الدنيا كلها نهاراً فقط؟
ابتسمت بلقيس وقالت ليحيا وهو يجلس إلى الصينية
الموضوعة على الأرض :
- فلا ترى النجوم ، ولا تراك .
فقالت هنية ، وهي تنهض من الأريكة بصعوبة :
- نحن رأينا النجوم في عز الظهر ، وليس في الليل فقط . .
فهيا يا يحيا كل ، ولا تخف من شيء . . وهيا يا شاكرين تعالي
للعشاء .

لم تفارق الابتسامة قط شفاه توفيق طيلة العشاء ، ولولا الانشغال بالطعام للحظتها عيون الذين انكبوا على الحساء يتناولونه بقطع من الخبز ، ويستغرقون في مضغ الأدام ، بينما الظلمة ، لمن يرفع نظره بين الحين والآخر إلى أعلى ، ترسم ثقوب المدفأة النفطية مطبوعة فوق سقف الغرفة على شكل زخرفة من الضوء ، وتلقي على جدار الغرفة المقابل ليحيا ظلالاً تتراقص مع حركة ذبالة نور الفانوس .

قالت بلقيس :

- الأخبار سيئة . . يقولون إن الحرب ستقوم .

قال توفيق :

- بدأنا ننقل بعض الأجهزة إلى مواقع بديلة .

هنية قالت :

- لا أصدق أنك رأيت صلاح في التلفزيون .

قال توفيق :

- رأيت بالصدفة وأنا في اجتماع للمذيعين في غرفة المدير

العام .

بلقيس التي سمعت الخبر للتو قالت :

- حقاً رأيت؟ . . أين؟

قالت توفيق :

- في ستلايات المدير العام .

قالت هنية :

- سودة عليه . . شنو ستلاي؟

لم يرد توفيق مباشرة ، فقالت بلقيس :

- انه قمر صناعي لنقل الصورة من بعيد . وماذا قال؟

حول يحيا نظره من الجدار الى أمه ، فقال توفيق :

- كنا ناقش خطة للطوارئ . . ولم يكن ظرف الاجتماع

مناسباً لكي استمع إليه جيداً . . ولكن البرنامج كان يعرض آراء

عراقيين وعرب في الخارج كانوا يتحدثون عن الحرب القادمة .

قالت شاكرين :

- لعد راح أعطيه لصلاح؟

قالت أمها :

- ما هو؟

قالت شاكرين :

- القميص الذي أحوكه . . فقد خلص .

قالت أمها :

- هيا كلي . . لم يكتمل . . لا زال بدون أكمام .

قالت بلقيس :

- نحن أيضاً سنرفع البدالات من أماكنها ، وننقلها إلى

أماكن بديلة .

قال توفيق :

- أنا اليوم سأكون خفراً في الدائرة . . هل يوجد جوارب

نظيف؟

نهضت شاكرين وصرخت :

- أنا أجلبه لك .. إنه منشور على الحبل .

ركضت شاكرين وجاءت بالجورب النظيف ، وفي تلك الليلة حلم يحيا بالمرضات النحيلات يهبطن من عرباتهن البيض ليضعن العلامات على أبواب البيوت .. كل باب بيت فيه طفل يضعن عليه علامة ضرب ، وكل بيت ليس فيه طفل يضعون عليه علامة صح . وعندما سألهن لماذا يفعلن ذلك قالت تلك التي دفعته إلى داخل البيت : - لكي لا تصاب بالشلل .

هنية في ذلك الحلم كانت مكومة في حوش المنزل وهي لا تقوى على النهوض ، فقال يحيا لشاكرين :

- بببي وقعت من السطح ، وانكسرت يدها .

نظرت هنية بتعجب إلى يحيا وقالت :

- آه ، يا شقي .. إنك تحكي عن تاريخ .. عندما كنت

صغيرة كان أهلي يضعون بيننا وبين سطح الجيران حبلاً يتدلى منه شرف كبير يمنع أن يشرف أحد على أحد .. وقد تعلق ذات يوم بذلك الحبل وقلت لأختي : خديجة تعالي شوفيني .. أنا فوق ، ولكن الحبل انقلت من مربطه وسقطت من السطح إلى حوش البيت .. وانكسرت يدي .

قالت شاكرين :

- وأسنانك أيضاً .

فقالته هنية :

- وأسنانني أيضاً .

قالته شاكرين :

- وخالته بلقيس نامت معك في المستشفى .

ضحكت هنية لأول مرة ضحكة صافية ونابعة من القلب ،

وقالته :

- بلقيس؟ لم تكن بلقيس موجودة في ذلك الحين .

فقالته شاكرين :

- بلى . . كانت موجودة .

فقالته أمها باستسلام :

- حسن ، بلقيس كانت موجودة ونامت معي في

المستشفى .

وأشرق الصباح ، فاستيقظ يحيا ووجد الشمس وسمع

شاكرين تغني «طلعت الشميسة على وجه عيشة ، عيشة بنت

الباشا . . تلعب بالخرخاشة ، صاح الديك بالبستان الله ينصر

السلطان» . ووصلت هبات من القداح إلى الغرفة المفتوحة بابها

على الحديقة ، وغمرت يحيا بعطرها الأبيض الطيب . فابتهجت

روحه وطاب نفساً بذلك الصباح الطري مع انه خارج الغرفة كان

ملفوفاً بغمامة من الدخان الأسود حجبت السماء عن الأرض . .

أغلقت المدارس أبوابها وألغيت رحلات الربيع التي كانت مقررة

إلى الحبانية والثرثار وجزيرة الأعراس والمدائن وبانوراما القادسية . .

قالت بلقيس :

- إنهم يحرقون إطارات مطاطية لتشويش الرؤية .

قال توفيق :

- هل سنحارب أعمارهم الصناعية بعثولة دخان؟

قالت هنية :

- الناس يتزودون بالمؤن ، ويحفرون آباراً في حدائقهم

خشية انقطاع الماء .

قالت بلقيس :

- النهر قريب . . ما حاجتنا إلى بشر؟!

فقالت هنية :

- قد لا نجد ماءً نظيفاً نشربه ساعة الساعة .

فحمل توفيق أوراقاً من فوق منضدة المطبخ ، ووضع قدح

الشاي الذي كان في يده جانباً ، وقال بنبرة لا لون فيها على

الإطلاق ، ولكنها تقترب من الغناء :

يا مسعدة بيتك على الشط منين ما ملتي غرفتي

كدام بيتك يلعب البط وأناي بطرف عيني دمعتي

أقترب يحيا يتشاءب ليطرده من جسمه النعاس ، وعندما

يتشاءب يحيا تنغلق كلتا عينيه بقوة . فقالت له شاكرين

بانفعال :

- ستقوم الحرب .

فكف عن التثاؤب وقال لأمه :

- نعم ، فعلامات الضرب قد رسمت على البيوت .
لم تسمعه بلقيس التي كانت تضع السكر في الكوب ذي
العروة المكسورة ، وتضع أمامه ثلاث قطع من الكعك ، فأخبرتها
هنية بوجود بيضة متبقية في الثلاجة فالتفت بلقيس وفتحت
باب الثلاجة على عجل . . ورأى يحيا من مكانه خلف منضدة
الطعام في المطبخ البيضة الموضوعه خلف باب الثلاجة تسقط
من مكانها على الرف وترتطم بالأرض وتتفجر أجزاؤها في كل
مكان .

صاحت هنية :

- خير . . خير . . طار الشر . . طار الشر .

وقال يحيا :

- لا أريد البيضة . . ولا أريد الكعك .

استعجلته شاكرين أن ينهي فطوره على عجل ، ويخرج
معها إلى الحديقة لكي لا تقع الحرب وهم غافلون عنها ،
فزجرتها أمها وطلبت منها أن تقر وتهجع في مكان أمين ، وأن
لا تبعد عن البيت مطلقاً ، فقلبت شاكرين شفرتها بزعل
وقالت لأمها :

- ما . . ما . . أريد أطلع وأشوف الحرب أول ما تبدي .

- قلت لك لا .

- ما عليه أريد أشوف الحرب . . أريد أشوف الحرب .

- قلت لك لا تخرجي من البيت؟

- لقد روحي زاعلتك .. جيني جيني .. للموت لا

تجاجيني .

عكنشت شاكرين وجهها ، وبرطمت شفيتها . . ونهضت
بلقيس إلى مذياعها الموضوع فوق سقف الثلاجة وفتحته على
إذاعة بغداد فغنى عبد الحلیم حافظ «مشغول وحياتك
مشغول . . ولاحر الأسبوع مشغول» ، وغنى فريد الأطرش «ما
انحرمش العمر كله من عطفك عليّه . . يللي حبك من السما
أجمل هدية» ، وغنّت لور بكاش بعده «أمنت بالله أمنت
بالله . . نور جمالك آية . . آية من الله . . أمنت بالله» ،
فشعرت بلقيس أن الحرب بعيدة عنها بعد السماء عن
الأرض ، وأنها من المستحيل أن تقع في مثل هذا اليوم
الجميل ، ولن تحدث في أي يوم آخر ، بل لن تقوم على
الإطلاق .

الفصل الخامس

الخطاريين

(٢١)

وفي العصر الواقع بين مقتل الليدي ديانا وعيد ميلاد أوبرا الخمسين ، وبعد عقد من الزمان على زمان الأب الذي جلس فيه الدب الأحمر مع الأفرو-أمريكي الأبيض ، وقال له وهو يحكّ جبهته الموشومة بالمنجل والمطرقة : لم أعد عدوك ، فابحث لك عن عدو جديد ، نظر الابن ملياً إلى معجم البلدان التي تضع كلمة (حلال) مطبوعة على لحوم الهمبركر وباكيتات الكانتاكي وحتى على مكعبات المايجي ، ثم أرسل الأفرو-أمريكي الأبيض ليهبط في مطاراتها واحدة واحدة فيدوس على القلوب التي تهفو إليه ، ويمشي في الأرض مرحاً مرحاً حتى يصل إلى الدب الأحمر الجديد ، ويقول له إنك لم تعد عدوي فعلاً ، وإن الخطر الداهم قد أدمى القلوب ببضع أدوات بسيطة خطفت بها الطائرات العملاقة وزلزلت البنايات الشاهقة ، فانظر هذا هو العدو الجديد .

داعب الابن كلبته المدللة (سبوتي) ذات اللون البيض المرقش بنقاط سود وهو جالس بقربها في شرفته المظلة على ملاعب الغولف الخضراء التي تنتشر في أرجائها فسائل نخيل اليوكا وأشجار الأرابيا والأريكاريا والسنتوريا ، ثم قال لمستشاره

للسعادة القومية وهو يعبر من الشرفة إلى الغرفة :

- ماذا تظن سيسموننا بعد عشرين عاماً؟

- المحاربون القدماء .

قال الابن :

- لا أحب هذا الاسم .

قال المستشار :

- لا أحد يحبه سيدي .

قال الابن :

- إذن ما الحل برأيك؟

قال المستشار :

- انظر إلى هذا الحوض .

ثم أشار بإصبعه إلى جهاز زجاجي لم يكن أكبر من حجم كتاب ضخّم جاثم على سطح منضدة معينة . . كان ذلك الجهاز مصنوعاً على شكل مستطيل مجسّم مؤطّر باللون الأسود ومثبّت من الجانبين على عمودين مربوطين بقاعدة تتيح له التحرك والدوران بشكل محوري . . يمكن تقليب المستطيل الزجاجي المجسّم كدولاب الهواء من الأعلى إلى الأسفل فتخرج من ركنه الأيمن في السقف ، عندما ينقلب ، مئات العناكب الصغيرة التي تسير على درب متعرج ينزل مثل خط بياني إلى أسفل المستطيل حتى يصل إلى زاوية أخرى في قاعدة المستطيل تدخلها ويدخل بعدها طابور العناكب ثم

يختفي المنظر بأكمله لحين انقلاب المستطيل عاليه سافله مرة أخرى فتعود العناكب للظهور من الزاوية التي كانت في أسفل المستطيل فأصبحت أعلاه ، وتواصل هبوطها على الطريق المتعرج إلى الزاوية اليسرى في قاع المستطيل .
قال الابن وكان أصغر سناً من مستشاره :

- من المؤسف أن العناكب في الأسر تعجز عن إنتاج الكميات المطلوبة من الحرير لاستخدامه على نطاق واسع ، ولكن مركز الأبحاث التابع للجيش انتزع جينة من إحدى خلايا العنكبوت الذهبية وزرعها في جرثومة تعيش في زجاجة مختبر . . وما لبثت هذه الجرثومة أن أخذت بالانقسام وأصبح لديهم بين ليلة وضحاها ملايين الجراثيم وداخل كل منها مجموعة من جينات العنكبوت ، وتعمل هذه الجراثيم على إنتاج البروتين الضروري لصنع حرير العناكب وفي حال تعزيز عملية الإنتاج سيتوافر للجيش كل ما يحتاج إليه من حرير .

قرب الابن عينيه الصغيرين إلى الزجاج فنزلت ذؤابة خصلة ملساء من غرته على جبهته أعادها إلى مكانها ثم قال :

- وإن فشلت؟

قال المستشار :

- نعرضها في متحف كما عرضنا طائرات هيروشيما .

قال الابن :

- أنا أكره المتاحف . .

- لا أحد يحبها سيدي .

- ترى من صاحب فكرة هذه البطارية؟

قال المستشار :

- أنت تنظر إلى ساعتك كل يوم ، فهل تعرف منشأ

فكرتها؟

لم يلتفت الابن إلى ما قاله المستشار ، إنما قال وهو يمسح

رأس كلبته سبوتي بيده :

- هل تسمع أنين العناكب؟

قال المستشار :

- أي أنين .. لا يوجد أنين . العناكب مخلوقات

ضعيفة .. لا تفهم .. ليس لديها إحساس . وهناك مخلوقات

أضعف من العناكب ، وهي الجراثيم .. هذه الكائنات الصغيرة

السيئة السمعة ستكون قلباً نابضاً لثورة صناعية جديدة في

القرن الحادي والعشرين .. قبل عشرين عاما كانت فكرة

استخدام الجراثيم في صنع نسيج العنكبوت خرافة علمية ليس

إلا .. أما الآن فهناك مراكز أبحاث يفكر علماءها في طرق

لاستخدام الجراثيم لإنجاز أعمال تبدو بعيدة المنال كصنع أجزاء

دقيقة لأجهزة كومبيوتر بايولوجي مجهري ، أو صنع البلاستيك

والشكولاتة أو التهام البقع النفطية في المحيطات . وثمة جينة

جديدة تسمى جينة الانتحار قد تولج في الحمض النووي

داخل خلية الجرثومة وتأمرها بالانتحار حالما تتم عملها ، وهذا

الأمر بالتدمير الذاتي قد يرتبط بتغير خارجي كالظلام أو البرد أو لنقص في كمية الطعام ، وبهذه الطريقة تنفق الجراثيم التي تأكل بقع النفط قبل أن يتسنى لها مغادرة مياه المحيط .

قال الابن :

- أضعف المخلوقات ليست بأقلها أهمية . . والفرق بين الحي والميت قد يكون حبة أسبرين صغيرة جداً .

فقال المستشار :

- وهناك سلالة من البكتريا تمتلك المقدرة على صنع بلورات من الفضة بفضل قدرتها على تجميع مركبات الفضة واختزانها في أطراف الخلايا ، وقد تم اكتشافها أثناء دراسة أحجار مستخرجة من مناجم الفضة . إن ما يحدث في خلايا هذا النوع من البكتريا لهو عملية مذهلة ومعقدة للغاية . . فلو زرعنا هذه البكتريا في مختبر وهياًنا لها الوسط الذي تحتاجه لتكوين بلورات الفضة ، لبدأت البلورات بالتكون بأشكال هندسية واضحة الملامح ، وأغلب البلورات ستكون من الفضة الخالصة تقريباً . وهذه البلورات لها خواص فريدة لا تتوفر لها عندما تكون بالحجم العادي بالرغم من تطابق التكوين الكيميائي في الحالين .

قال الابن :

- بلورات فضة متناهية الصغر . . من بكتريا؟ وماذا بعد؟

قال المستشار :

- لا أجد مانعاً من أن نبحث عن مثل هذه المخلوقات ونضعها في هذا الاكواريوم الزجاجي ، ونرى ماذا نصنع بها .. ربما من عطاسها .. من ثناؤبها .. من جيناتها .. من لعابها .. من جلدها نستطيع أن نصنع حبة أسبرين أخرى غير التي صنعها جرهارت .

قال الابن :

- كل شيء جائز .. فقطرة المطر قد عرفت الموشور قبلنا .

قال المستشار :

- وألكسندر فيلمنغ أخرج البنسلين من العفن ، ومن دموع العين أنتج عقاراً يقضي على البكتريا .. وهناك حشرات تعمل في حقل التجسس الدولي ، وفي المياه العميقة توجد أسماك آلية مطاوية قادرة على السباحة وسط الأسماك الحقيقية ، ولكنها ذات مهمات في غاية السرية .. واحدة اسمها شارلي .

فقال الابن هازئاً :

- سمكتنا الجاسوسة المهضومة اسمها شارلي .. لا عجب أن ثلاثة أرباع الشعب يؤمن بحاجته إلى باتمان وسبايدرمان وسوبرمان .. همممم .. شعب سعيد بالفعل .

قال المستشار :

- جداً .

قال الابن :

- واني لأعبطه على سعادته .

قال المستشار :

- فعلاً .

ثم تقدم إليه بمخطط إنسان قال عنه مستشار السعادة القومية إنه فانٍ وعابر كباقي البشر ، ولكنه وحيد ومهموم ولا يعرف الضحك ، كما أنه ينظر كثيراً إلى النجوم . تحرك المخطط بين أيديهما وابتسم الرجلان السعيدان برضا تام في السرائر . . وهما يمثلان بصمت عميق في حضرة الحلم المستحيل الذي ظل يراودهما أعوام خلت قضتها وكالات الطاقة في نبش أطنان من تراب الأرض وجاب الرجال من أجله بين الكهوف وتغور الجبال ، ناخلين الأرض عاليها سافلها قبل أن يعثروا عليه ممدداً فوق سرير معدني على سطح بيت داوٍ ويلتقطوا له الصور لعدة سنوات .

نظر الابن إلى مخطط الإنسان وقال :

- ماذا سنصنع به؟

قال المستشار بين الجد والهزل :

- سنضعه في وعاء فخاري مملوء بالخل نسد فوهته بالقار .

قال الابن هازئاً :

- هل ستصنع منه خلية بابلية؟

قال المستشار :

- أليست هي أول خلية كهربائية بالتاريخ؟

قال الابن :

- لدينا مسبار الفضاء (جمبو) الذي سيذهب إلى كوكب
المشتري بقوة الدفع الكهربائية النووية ، وأنت تحدثني عن أول
خلية كهربائية بالتاريخ؟!
قال المستشار :

- حسن .. هذا هو شكل الإنسان البائد الذي نبحث
عنه ، هولك ، فاصنع به ما تشاء .
قال الابن :

- ما أغربه هذا الإنسان .. انظر إلى عينيه .. إنهما أكبر مما
نملك .

قال المستشار :

- ووجهه ما أعرضه!

قال الابن :

- ورأسه ، يا إلهي! ما أكبره! .. أتساءل بماذا يحتاج هذا
الرأس وهاتين العينين؟

قال المستشار :

- لم يكن يحتاجهما لشيء مع الأسف غير الأكل والنوم .

قال الابن :

- ولكن بماذا يحلم وهو نائم؟

قال المستشار :

- يحلم بأن يكون سعيداً .

قال الابن :

- نحن سنحقق له هذا الحلم . . أليس كذلك؟

قال المستشار :

- نعم سنحول طاقته الكيميائية إلى طاقة كهربائية . .

فعند ذاك سيكون ذا فائدة ، فالدائرة الكهربائية لا تحتاج إلى

أكثر من مصدر للطاقة الكهربائية وأسلاك كهربائية ومصباح .

رفع المستشار المخطط من على المنضدة المعينية ، ورفع الابن

يديه وبسطها على سطحها الصقيل الذي يشبه المرأة ، ثم نهض

بقامته النحيفة الطويلة وانحنى عليها ، ونظر إلى صورته ملياً في

المرأة الصقيلة المستوية وقال :

- لماذا تبدو الصورة في المرأة لعين الناظر وكأنها آتية من

نقطة واقعة خلف المرأة؟

قال المستشار :

- لأنها وهمية .

قال الابن :

- وصورتي هي الحقيقية؟

قال المستشار :

- نعم سيدي ، فالصورة الحقيقية تقع أمام المرأة ، والصورة

الوهمية تقع خلفها . .

قال الابن :

- ولكنها معتدلة من حيث الأعلى والأسفل ، ومعكوسة

من الجانبين ، فاليمين شمال ، والشمال يمين ، فأرسل لي

استطلاعاً وافياً عن فكرة البحث عن الماء في كوكب المريخ .
خرج المستشار الذي كان يرتدي ثياباً ملونة من الغرفة إلى
الشرفة عبر باب تسمى باب السرمدية ، فعدّل الابن ياقته
البيضاء وهو لا يزال باسطاً يديه على السطح الصقيل للمنضدة
المعينية ، وقال بصوت خفيض :

- والصورة الحقيقية تتكلم ، والصورة الوهمية تحرك فمها
فقط .

وهذا ما دار من كلام مباح بين الابن ومستشاره للسعادة
القومية بعد مرور عقد من الزمان على ذلك اليوم الذي حَدث
فيه الأب نفسه حديث الرحلة المستقبلية للبحث عن جليد
الماء في كوكب المريخ ، فحقق له معشر الإنس ذلك الحلم بعد
عشر سنوات ، وفي عام خال من الزوايع والعواصف الشمسية
أرسل الابن بعثة مركبة الفضاء (سبرنتي) المتوهجة بالنار ،
فنفذت من أقطار السموات والأرض وأنزلت عربتها العجائبية
ذات الأرجل الستة لتهبط كالعنكبوت على بر منتقى بحساب
من سطح المريخ ، وتخرق أرضه الجليدية بحثاً عن مياه
ضحضاحة صالحة للشرب ، أو أفكار فنية للحياة يرش رذاذها
الخام الناعم على كوكب الأرض برمته ، ليُفتتح بها المسرح عن
خشبة القرن الواحد والعشرين ، ويرفع الستارة لجمهور سيكون
سعيداً ، وهو يتفرج على أهداف تتحقق لأبطال العالم بالقلوب
السعيدة .

هكذا حدث الابن نفسه وهو يرفع نظره من سطح المنضدة إلى المرأة المعلقة في البيت الوردي منذ قديم السلاات . . عدل ياقته البيضاء مرة أخرى فهبت نسائم الربيع الطرية من الملاعب الخضراء عبر باب السرمدية المفتوح وأسقطت خصلة شعره المسترسلة على جبهته ، فأعادها سليل المرايا إلى مكانها وابتسم برضا تام ، وكأنه يقول :

- يا مرآة الجدار . . يا مرآة الجدار . . من أقوى الرجال في

هذه الديار؟

وفي اليوم الذي سبق عيد الأم بيوم واحد كانت بيضات السنونو تملأ أعشاشه الأزلية التي يبنها كل عام في الأماكن ذاتها من كل البيوت . . تلك الأعشاش طردت عن كل زوايا الحوش وحشة الشتاء ، وارتدى ورد مختلف ألوانه ملابس عيد نوروز في الربيع البهيج ، وكلل شجرة النارج قداحها الأبيض مثل بدلة زفاف ناصعة البياض ، وتفتحت أكمام الراقية الحمراء عن بتلات ورود أوراقها مخططة ورائحتها زكية ترد الروح ، فقطعت بلقيس واحدة منها بأصابعها التي اسودت من تقشير حبات الباقلاء الخضراء ثم وضعتها في قارورة ماء . قالت بلقيس :

- يحييا . . هل اسمع لك درس العلوم؟

فقال لها :

- ولكن المدارس مغلقة .

فقالت له :

- قد لا تقوم الحرب ، ويفوتك حفظ الدروس .

فقال توفيق ، وهو يهم بالخروج :

- بل ستقوم الحرب في أية لحظة .

قالت هنية :

- يا رب استرنا جميعاً .

نظر توفيق ملياً ، قبل أن يخرج ، إلى الحديقة المزدانة
بالألوان ، وقال :

- ما أجملها هذه الورود!

فقالت أمه :

- زرعنا الحديقة خياراً ولم يثمر ، وزرعناها ورداً فأثمر . يبدو
أن هذه الحديقة حديقة مجانيين .

قفز توفيق بعيداً عن الماء الذي رشته هنية خلفه ، وهي
تقرأ آية الكرسي وتبكي وتدعو الله أن يحفظ أولادها وأولاد أمة
محمد من هذا الشر ومن كل شر .

وعندما غابت الشمس ساد الارض سكون عجيب . .
عجيب إلى درجة خلوه من الخوف واختلاطه بالمتعة الخفية
التي تصاحب ترقب أمر خطير ، وأصبح كل واحد منهم قابلاً
للانشطار إلى اثنين . . أحدهم خائف والآخر متلذذ . . وأصبح
للليل اسماً لا أحد يعرفه أو يستطيع الاستدلال عليه ، ما عدا
بلقيس وهنية اللتين تعرفانه جيداً بعد أن كانا قد خبرتا نسخة
مطابقة منه عندما حدثت حرب الكويت منذ ثلاثة عشر عاماً
مضت .

قال يحيا :

- لماذا لا نذهب للنوم؟

فقالت هنية :

- ومن سيأتيه النوم في ساعة نحس كهذه ؟ أعطني يا بلقيس ما لديك من باقلاء لكي أقشرها .

وراحت بلقيس تدور في أرجاء البيت وتلملم ملابس تضعها في الشراشف والبقيج وتبحث عن أوراق تضعها في حقيبة يدها . قالت هنية :

- ماذا تفعلين؟

فقالت بلقيس :

- الله وحدة يعلم ماذا سيحدث لنا؟ هيا نلف ما يمكن حملة من الإغراض فتحميه من الكسر إذا ما اشتد القصف ، أو نجعله مهيئاً للنقل إذا ما اضطررنا للرحيل .

قالت هنية إن رجلها تؤلمانها أكثر من أي يوم مضى وأنها لا تقوى على النهوض ، واقترح يحيى أن يقوم بطي سجادة الغرفة حين انتهاء أمه من غريبله ولملمة أغراضها ، وذهبت شاكرين إلى السطح وقالت إنها ستري ما إذا كانت ثمة ملابس منشورة على جبل الغسيل .

أول ما طوى يحيى سجادة غرفة النوم تلك التي ولدته أمه عليها قبل ثلاثة عشر عاماً واسمها سجادة الفصول الأربعة ، برق شيء ما تحتها والتمع بضوء ضعيف ، فتمتم يحيى بشيء ما وأتاه دوار خفيف ، فقالت بلقيس :

- ها؟ لماذا توقفت؟

قال يحيى ، وهو يرفع السجادة عالياً عن الأرض :

- يوجد شيء ما تحت السجادة .

وظل ممسكاً بالسجادة بيده المرفوعة إلى أعلى بينما انحنت بلقيس عليه ومدت يدها للوصول إليه ، ثم صرخت :

- ابتعد ، إنها حية .

فقال يحيى :

- دعيني أخرجها .

نظرت إليه بلقيس بغضب ، وقالت :

- كيف تخرجها؟ .. ستلدغك ، لنلف السجادة عليها إلى

أن يجيء توفيق ، أو ندع السجادة فوقها ، ثم نضرب السجادة بعضا غليظة .

قال يحيى :

- الحية يجب أن تخرج . يوجد شيء تحتها .

قالت بلقيس :

- وأين تذهب؟ ستمشي في الأرض بيننا وقد تؤذنا . . هيا

أعدّ السجادة إلى مكانها . . لا تُبقِ يدك مرفوعة هكذا فتخرج الحية من تحت السجادة .

قال يحيى :

- هناك شيء ما يلمع تحت الحية .

جزعت بلقيس وصاحت بهلع :

- هنية . . هنية . . هذا الولد راح يموت . . يريد أن يمسك

بالحياة؟

فغافل يحييا أمه التي كانت تصرخ ، ومد يده بسرعة
خاطفة إلى الحية التي كانت ساكنة تماماً وكأنها نائمة أو
تتظاهر بالموت ، ثم خطف في لحظة واحدة ذلك الشيء البارق
الذي كان مندساً تحت ذيل الحية ، فشهقت بلقيس ودفعت
السجادة إلى الأرض وغطت الحية بها ، ثم راحت تضربها على
رأسها بالخف الذي كانت تنتعله ولفتها بالسجادة بانتظار أن
يجيء توفيق ويخرجها من هناك . أما يحييا فكان يمسك بيديه
ذلك الشيء اللامع الصقيل ويقول لنفسه :
- مرأتني .

ثم راح يمسح بيده عنها التراب من جهة الضماد ، فانبثقت
شدة ورد صفراء قطفتها أمه من البرية ووضعتها فوق منضدة
قرب وسادتها على السرير ، ثم اختفت الشدة من المرأة ، وظهر
وجهه الجميل على سطحها المترب المحاط بقطعة متسخة من
القماش ، فسمع صوت بعيد يقول :
- ما أجمله طفل اللالة .

وسمع يحييا شاكرين تقول :

- حية .. حية .. يوم يمة تعالي شوفي الحية .

تردد صوتها مثل طنين ذبابة ، ودار دورة كاملة بين جميع
الجهات ، فحمل يحييا مرآته ، واستكملت بلقيس طي سجادة
الفصول الأربعة من آخرها إلى آخرها ، ولفتها من طرفيها بنخرق
سوداء متبقية من أكمام دشداشة متهرئة أكلها العث ، ثم

أخرجتها من الغرفة . . وعلى السطح رفع يحييا مرآته التي
افتقدها منذ زمن طويل ، ونظر فيها إلى وجهه ، فانعكست
صورة السماء المظلمة ترصعها النجوم ، ولم يتمكن من رؤية
وجهه بوضوح ، فقال الصوت : أين أنت يا يحييا! وبدا أن
الصوت يأتي من بعيد .

شاكرين لم تكن موجودة على السطح . رفع يحييا حبل
الغسيل ومر من تحته وتوجه إلى السياج ونظر من هناك إلى
الحديقة ، فوجد شاكرين تسحب السجادة مع بلقيس الى خارج
البيت ، وتضعها قرب خيال المائة ، وبعد أن انتهت نادى عليها
هنية :

- لماذا لا تدخلين؟ الدنيا ظلمة . هيا ادخلي إلى البيت .

قالت شاكرين :

- انتظر الحرب .

كان الصوت البعيد الذي سمعه يحييا قبل قليل يختلط في
قلبه مع أصوات لغط وأزيز .

- حسناً . . لن تنتظري طويلاً يا شاكرين .

قال يحييا وهو منحني على سياج السطح ، وأخبرها أن
الصواريخ ستجتاز الصحراء بعد لحظات ، فضحكت شاكرين
وهللت طرباً ، وقالت لخيال المائة إنهما سيختبئان سوياً تحت
أشجار النارج إذا ما جاءت تلك الصواريخ . . ولكن ذهب
الوقت وغلبها النعاس ، ورغبت هنية في النوم . . ونامت . .

ورغب يحيا في النوم . . . ونام . . . مرآته بين يديه حتى انبلاج
الفجر الذي بعد انبلاجه بلحظات ، سقط خيال المائة على
الأرض من دوي بعيد ، ولكنه هائل ، فلطمت بلقيس على
خدها واستيقظت هنية فزعة ، وصاحت شاكرين فرحاً :
- هيببيبيبييه . . . بدأت الحرب .

وانفتح قميص بغداد ، ورضع الجميع لبناً مرّاً ، وحاقت بهم من كل الجوانب ريح سوداء ، وطار السخام الأسود في الهواء ، ثم تساقط هبأً على النوافذ والسطوح ، وهرعت بلقيس إلى التلفزيون فلم تجد سوى أناشيد النصر ومعزوفات الطبول الصاخبة التي عادة ما ينتظرون معها إلقاء خطاب مهم . وانتظروا والناس معهم منتظرون حتى عرفوا أنها الحواسم :
أطلق لها السيف لا خوف ولا وجل أطلق لها السيف وليشهد لها زحل

فكف صواعيد النخل عن التجوال بين البيوت التي هجرها أهلوها وهجّوا إلى القرى النائية ، وحالت الحرب بين عثاكل التمر ومن يحمل لها أكياس اللقاح أيام الربيع ، وامتلات الشوارع بالرجال الخاكيون يخرجون من بين المواضع ، أو يجلسون في بوابات المدارس والدوائر والبنائيات الحكومية .

ومرت ثلاثة أيام كالدهر ، كاد يقتل هنية خلالها مذياع بلقيس وهو يدور فيها من مونت كارلو إلى بغداد ومن بغداد إلى لندن ، فتطلب منها أن تترك الأخبار وتدع القلقالي أو عبد الستار الطيار يقرآن القرآن الكريم ، وأن تجعل لها مستقراً واحداً

في التلفزيون عسى أن يتبدد خوفها وتعرف شيئاً عن توفيق :

- يا ويلي عليك يا توفيق! أين أنت الآن؟

- أتعرفين يا هنية ماذا قالت موظفات البدالة . . ربما يرشون

علينا منوماً فننام . . سننام يا هنية ، وعندما نستيقظ سنفتح التلفزيون وسنجد كل شيء قد تغير .

- والمذيعون . . ماذا سيحصل لهم؟

- سينامون وعندما يستيقظون سيجدون أنفسهم في

بيوتهم .

- يا ويلي . . يا ويلي عليك يا توفيق!

وأصبح قلب هنية فارغاً من الخوف ، وراحت تقضي النهار

كله في الصلاة والدعاء والتسبيح وتلاوة ما تحفظ من آيات

القرآن . «وجعلنا بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم

فهم لا يبصرون» .

وفي آذار المهذار ، شهر الهزاهز والأمطار ، أودت ريح رملية

عاصفة بثمرات النارج المتبقية على الأشجار ، وأطاحت بها

أرضاً مع أكوام من الورق اليابس وطبقات التراب وسقطت

بيضات السنونو الخمس على الأرض وتكسرت إلا بيضة

واحدة لم تتكسر ، فصاح السنونو وناح وظل يدور في السماء

بلا إنقطاع ، وظهر الجنود الأمريكيون المرقطون يزحفون إلى

مروحياتهم بقامات محنية ، والريح تسف رمالها ذات اليمين

وذات الشمال ثم تذررها في وجوههم ، وتعصف بملابسهم ،

التي تمنع عنهم الموت ، وطال الوقت وأصبح عجيب هنية كالبالونة من شدة الاختمار ، وأقعدتها المرض من النهوض ، فتركته يتثقب ويتشقق ويتفطر ويتضوع بعطر قديم هو رائحة قمح مختمر ، وحلمت برائحة الحطب المشتعل والأرغفة السمراء تُشلع تواءً من الطين المستعر بالنار ، فجاءت بلقيس وأخبرتها أن لا تقلق ، وأن كل شيء سيكون على ما يرام لأن الرجال الخاكيين لا يزالون ينتشرون بين البيوت وهم يحملون الرشاشات على أكتافهم . . فقالت لها هنية :

- اخبزي العجين الذي احتمر ، وأخرجي لهم أرغفة الخبز الحار .

فأشعلت بلقيس الحطب وسجرت التنور وشلعت الأرغفة السمراء من الطين المستعر بالنار وأخرجتها إلى جنود لا يرتدون غير قمصان خفيفة وسترات مرقطة ، ولا يفعلون شيئاً سوى مصارعة الرياح العجيبة التي كانت تغير اتجاهها بين لحظة وأخرى فتصفعهم من جميع الاتجاهات وترديهم أشباه موتى على أرصفة الطرقات . حدث ذلك في الرابع من نيسان ، وفي تلك الليلة غفت بلقيس في غرفة الهول ، ثم استيقظت من غفوتها القصيرة على صوت انفجار قوي رماها من الأريكة إلى الأرض ، وحوّل زجاج المنزل إلى حطام .

صاحت هنية :

- سترك يا رب . .

فقالت بلقيس :

- أين يحييا ؟

فقالت هنية :

- كان نائماً . . استرنا يا رب .

الريح اشتدت خارج البيت ، وخلخلت نوافذه وملأت حجراته بالغبار وأوراق الأشجار . هرعت بلقيس وخلفها هنية إلى غرفة يحييا فلم تعثر على يحييا في فراشه . هلعت بلقيس وسقط حيلها إلى الأرض ، وانطلقت كالمجنونة تبحث عنه في كل ركن وزاوية حتى وصلت باب البيت التي انكسرت بفعل الانفجار وسقطت إلى الأرض ، فاندلعت الحديقة أمامها ووجدت شاكرين تبكي ، فصاحت بها بلقيس :

- أين يحييا ؟ ما بك ؟ هل أنت بخير ؟

فزاد بكاء شاكرين ورفضت الدخول إلى البيت وقالت وهي

تبكي :

- رأيت أبواب البيت تُفتح من تلقاء نفسها قبل أن يسقط

الصاروخ على الخرابة التي تجاورنا ، وقد كنت مستيقظة لم أتم

الليل كله ، فرأيت يحييا يخرج من البيت كمن يمشي في نومه ،

وهو يلتفت في كل لحظة وكأن هناك من يتعقب خطواته على

الممر . نهضت خلفه وخرجت إلى الحديقة وناديته : يحييا . .

يحييا ، يحييا . . فالتفت أكثر من مرة ونظر إلى الخلف ، دون أن

يجيبني ، فقلت له : الدنيا ليل ، فأين تذهب يا يحييا ؟ وكأنه

لم يسمعني سار على الممر إلى خارج البيت ، ولا أدري لماذا نظرت في تلك اللحظة إلى الأرض ، فرأيت حية تمشي خلفه ، فصحت بأعلى صوتي لأوقظكم من النوم ، لكن صيحتي جاءت في اللحظة التي حدث فيها الانفجار ، فوقعت على الأرض وراح يحيا .

ما أن سمعت بلقيس كلمات شاكرين حتى خرجت إلى الخرابة كالمجنونة حافية القدمين وحاسرة الرأس تبحث عن يحيا أو عمن يدلها عليه . ولما لم تجد أحداً غيرها في الشارع عادت إلى البيت مرة أخرى واستجمعت أنفاسها وسالت شاكرين وهي تبكي :

- أين يحيا؟

فمسحت شاكرين التي كانت في حضن أمها دموعها ، وقالت :

- لقد خرج ، والحية خلفه .

فصرخت بلقيس :

- الحية؟ الحية نعم . . لقد نسيناها منذ البارحة في

السجادة ، فأين هي؟

ثم ذهبوا إلى السجادة الملفوفة من آخرها إل آخرها ، وفتحوها فلم يعثروا للحية على أثر ، فتاهت بلقيس عن الدنيا وبدت أن الأرض تميد بها وتصرعها وتلتف حولها ، وقالت لهنية : هل أنا أحلم؟! ثم تهاوت على الأرض وقالت مرة أخرى :

- هنية ، أخاف أننا نحلم؟

فقالت هنية ، وهي تبكي :

- بل نحن صاحون .

عطست شاكرين بعد ذلك عطسة قوية ، فقالت هنية :

- وهذي شهادة .

فهجمت بلقيس على الأرض وضربتها بكلتا يديها

وصاحت :

- إذن أين يحيا ؟

وأسرت هنية في قلبها : «ربما يكون هذا الذي تقول

شاكرين انه تعقب يحيا هو ملك الموت ، وقد حملة إلى المكان

الذي حدث فيه الانفجار ليلآقي فيه أجله . أليست ابنتها

صابرين مدفونة هناك في الخرابة التي تجاوزهم» ، ثم تعوذت من

الشیطان الرجيم ومن وسواسه الخناس ، وطلبت من الرحمن

حفظ الولد ، وقالت ربما تكون الملائكة قد حملته إلى مكان آمن

لحين تجعل له أمداً بعده يعود ، ودعت بحرقه أن يدفع الله عنه

ما هو أعظم ، وأن لا يجعلها ترى يومه في حياتها ، وأن يفندي

روحه بروحها فتموت هي العجوز بدلاً من يحيا ، صغيرها

اليافع . ومن أجل ذلك نذرت النذور العظام بينها وبين نفسها ،

ثم قالت لبلقيس :

- لعله في بيت من بيوت الجيران .

ولم يكن سواهم في الزقاق أحد . . فقد هج أهله إلى

المحافظات والنواحي والعربان في هروب جماعي من قصف الطائرات وانفجارات الصواريخ ، ولم يجدوا أحداً ليسألوه عن يحيى سوى كحيله التي كانت تجلس في أرجوحة أكلها الصداً وتحرس بيتها في هبوب الرياح التي أصابها العته ، فقالت لها بلقيس :

- أما رأيت يحيى ؟

فقالت لها كحيله وشعرها يتطاير في الهواء :

- نعم ، رأيتَه يمر من هنا في الصباح الباكر . . بعد صلاة الفجر .

احتجت شاكرين بقوة على هذا الكلام ، وقالت لهم إنها رآته يخرج في الليل ، قبل الانفجار ، والحية تمشي خلفه ، ثم عكنشت وجهها ، وصعدت إلى السطح غاضبة وقالت لأمها هنية إنها زعلانة وستبقى هناك إلى الأبد ، لكنها سرعان ما غيرت رأيها وركضت خائفة إلى أسفل ، عندما توالى الانفجارات مرة أخرى ، لتجد أمها هنية تبكي ، وبلقيس تقرأ القرآن .

وانقضت عدة أيام وجاءت عدة أيام فهبطت شاكرين على عجل من السطح ، وقالت وهي تلهث :

- رأيت توفيق قادماً .

فلهج لسان هنية بالشكر والدعاء ، وقرأ قلبها كل ما تعرف من آيات القرآن ، وعاد توفيق لأمه وأخته شاكرين ، وأخذ

بعضهم البعض بالأحضان والقبيلات ، ولكن الدخان كان شديداً واختلطت أصوات الانفجارات بتكبيرات الجوامع ونداءات الاذان ، فلم يسمع أحدهم الآخر جيداً وهم يتحدثون ، وتردد اسم يحيى أكثر من مرة ، فقال توفيق بصوت عال :

- ولكن أين يحيى ؟

سأل توفيق ، فقالت شاكرين بصوت أعلى :

- لقد خرج ولم يعد .. أخذته الحرب .

قالت هنية تزجرها :

- سيعود . كافي عاد تنطنطين .. إنه في مكان أمين .

قال توفيق :

- ومتى خرج ؟

قالت بلقيس ودموعها تتساقط كالطر :

- خرج من بداية الحرب .

قال توفيق :

- بدأت الحرب وانتهت وهو بعيد عن البيت ؟

قالت بلقيس وهي تحدث نفسها بصوت عال :

- هل انتهت الحرب ؟

قال توفيق :

- انتهت .. ألا ترون الدبابات الأمريكية تسير في

الشوارع ، وسيارات البيك أب تحمل ألواح الزجاج وتدور به على

البيوت التي تكسّر زجاجها .

شعرت بلقيس أن العالم من حولها يضيع ، وأنها تصغر فيه
حتى تكاد تتلاشى ، فانكملت وقالت :

- ما هذه الانفجارات إذن؟

قال توفيق :

- إنهم يفجرون أكداس سلاح الجيش .

هزت بلقيس رأسها وجلست تنظر في فراغ ، أما شاكرين

فراحت تنود وتقلد بلقيس وتردد كلامها بدلاً عنها :

- أينك ، يا يحييا ؟ أجائع أم شبعان؟ أخائف أم بردان؟

أنائم أم نعلان؟ أينك يا يحييا ضائع أم

فقالت هنية تزجرها :

-كافي عاد تنوحين . . كيف يضيع ولديه كل هذا العدد

من الإخوان . قلبي يحدثني أنه في مكان أمين . فهيا كفي عن

النواح .

انحسر الطوفان واستوت بغداد على حجر يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ، فطرق عبد الملك الباب ، وفتحته له بلقيس . . أصابتها البلاهة لرؤيته واقفاً عند الباب وأصابته الدهشة لرؤيتها على تلك الصورة . . كانت قد أصبحت كالنحلة من شدة الوهن والنحول . ولم تشأ بلقيس أن تبدأ معه بالكلام ، فبدأ هو وقال :

- حمداً لله على سلامتكم . . كيف حالكم؟ هل أنتم

بخير؟

قالت وهي تنظر إلى عينيه بعجب :

- الله يسلمك .

ولم تشأ أن تخبره عن يحيى ، أو أن تطيل معه أكثر في الكلام ، أو أن تبدأ معه أصلاً بالكلام ، فظلت صامته تنتظر أن يبدأ هو .

- عدت وحدي من العرب لأتبين وضع البيت قبل أن

أعود إلى أهلي وأجيء بالبنات من هناك .

ثم رفع عينيه فوق رأسها وأكمل :

- يبدو أن بيتكم قد تضرر .

قالت بلقيس :

- نعم .

ولاحظت أنه كان شاحباً جداً ، وأن عينيه ضيقتان جداً
ولونهما فاتح جداً وأفتح مما تتذكر . . وأنه كان يرتدي ملابس
خاكية لم يعد يرتدها أحد منذ نهاية الحرب ، وأن وقفته قد
طالت بلا دواع ، حتى ضاقت به فقال :

- نسيت مفتاح البيت في جيب بدلتى المدنية ، ولدي
طلب لا أدري كيف أقوله؟

قالت له :

- تفضل .

قال :

- أسمحون لي بالصعود إلى سطحكم كي أعبر منه هناك
إلى سطح بيتنا وأكسر زجاجة باب السطح وأسحب المزلاج
لأدخل البيت .

رفعت بلقيس رأسها لا شعورياً إلى أعلى ونظرت إلى
هدف غير محدد في السطح ثم عادت ونظرت إليه وقالت :

- انتظر .

بلقيس دخلت إلى البيت و الحيرة معها وقصدت هنية
وقالت :

- هذا جارنا أبو ملائكة . . يقول إن مفتاح بيتهم ليس
معه ، وإنه يريد الصعود إلى سطح بيتهم عن طريق سطح بيتنا .

قالت هنية :

- دعيه يدخل ، عيني .

فقالت بلقيس :

- تعالي معي يا شاكرين .

دخل عبد الملك إلى البيت ومر من المطبخ سريعاً ، ثم عبر قريباً من غرفة هنية المخلوعة بابها من مكانها ، وتابع خلف بلقيس باتجاه السلم ، فلم تره هنية التي كانت ممددة على فراشها عندما مر من أمام غرفتها وصعد السلم يمشي مطأطأ الرأس بين بلقيس من أمامه وشاكرين من خلفه ، وعند منتصف الدرجات المؤدية إلى سطح البيت توقف :

- ولكن أين يحيا ؟

فلم تعرف بلقيس بماذا تجيب ، فأجابت شاكرين :

- يحيا ضاع .

واختنقت بلقيس بالعبرة ، فأطرق عبد الملك إلى الأرض ، ولم يجب وبدا وكأنه لم يسمع جوابها ، بل أنه لم ينتظر الجواب أصلاً ، وواصل صعوده إلى السطح ، ففزعت قطة كانت تتمدد غافية على السياج ، وقفزت بعيداً عندما رآته يخرج من باب السطح .

يده اليمنى التي وضعها على السياج لكي يستند عليه قبل أن يقفز كانت بخمسة أصابع ، وقد تثبت بها جيداً بأعلى السياج فأحاط بأصابعه الخمسة كتلة الإسمنت المتشققة قبل

أن ينتقل بقفزة واحدة من طرف بلقيس إلى الطرف الآخر .
ظلت بلقيس تنظر إلى يديه وهي مسجية أعلى السياج ،
وتذكرت خنصره المقطوع الذي لاحظت فقدانه مرتين من مرات
ما منحتها تلك اليد من مظاريف و قصاصات ملأت قلبها
بالسعادة في غفلة من الزمان القديم ، وفتحت فمها وكادت
تسأله عن ذلك الخنصر المقطوع كيف عاد إلى مكانه ، لولا أن
مرت مروحيتان تحلقان بانخفاض سادر من الأرض ، فجفلت
الطيور ، وأحكمت بلقيس شد الحجاب على رأسها ، وحادت
الفكرة عن أصابع عبد الملك إلى يد شاكرين التي ركضت
بعيداً وراحت تلوح لجندي أمريكي تتدلى قدمه خارج أبواب
المروحية السوداء . . كان بسطاله العسكري واضحاً للعيان . ولما
ابتعدت المروحيتان وذهبتا إلى مجهول لا متناه خلف الضجيج ،
قال عبد الملك وهو يضحك ضحكة لا معنى لها :

- أتمنى أن يعود يحيا سالماً بإذن الله .

فرفعت نظرها من أصابعه الخمسة إلى عينيه ولم تجب

فواصل :

- أما أنا فالدنيا خلصت معي .

ثم مضى حزيناً إلى باب السطح ، وعادت القطة إلى

مكانها فوق السياج ، وعمّ المكان صمت عجيب .

ارتفع طائر في السماء ، فالتمع شعاع الشمس الغاربة على ريشه الأبيض الدسم ، واصطفق جناحاه في الهواء بصوت مسموع ، وعاد ليحط على سدره ضخمة مزروعة في حديقة البيت المقابل ، ثم طار مرة أخرى وارتفع أكثر ، فاتقدت الجمرة في قلب بلقيس من جديد وقالت لتوفيق :

- استرك يحيى سدى؟ لنذهب ونبحث عنه في أي مكان .

قال توفيق :

- بحثنا عنه في كل مكان .

- سنظل نبحث عنه .

- ولكن اللصوص يتجولون في الشوارع ، والرصاص يلعلع في كل مكان ، والبيت قد يُسرق في أية لحظة .

قالت هنية :

- اذهبا أنت وبلقيس وابحثا عنه .. وأنا باقية في البيت .

ووضعت بلقيس ربطتها على رأسها وخرجت مع توفيق تحمل عشرات الصور ليحيا . وعند الباب توقفت وقالت لشاكرين :

- أكملني قميص يحيا يا شاكرين .

فتنهدت هنية ، وهزت رأسها ألماً ، وقالت لشاكرين :

- ألا يزال بدون أكمام؟

قالت شاكرين بزعل :

- نعم . . لأن ليحيا في حقيبة المدرسة أقلام جديدة

ودفاتر . وأنا ما عندي لا أقلام ولا دفاتر .

قبل أن يبتعدوا عن البيت توقفت سيارة أجرة قرب بيت

عبد الملك ، وهبطت منها ملائكة وناي وليلك وهن يرتدين

السواد ، ويضعن على رؤوسهن أوشحة سوداء ، وأرجوان

الشمس يلون السماء من خلفهن بلون الدم ، ويجعلهن يبدون

أمامها كظلال سوداء تمشي على الأرض . التفتت ملائكة إلى

توفيق ، فتقدم منها وقال :

- حمداً لله على السلامة . . خير إن شاء الله؟؟

اختلفت ملائكة بالعبرات ولم تجب ، فقالت ناي :

- أبي أعطاك عمره .

قال توفيق :

- لا؟ يا أسفاً عليه ، متى حدث ذلك؟

قالت ملائكة وقد تمالكت نفسها :

- من بداية الحرب ، قبل أربعين يوماً .

انتفضت بلقيس وقالت :

- كيف يكون ذلك؟ . . وماذا تقولين يا ملائكة؟ أنا رأيت

البارحة .. أقسم بالله لك إنني رأيته .. وشاكرين أيضاً رأته ..
لقد دخل إلى بيتنا وقفز من سطحنا ، وكسر زجاجة باب
سطحك لأن المفتاح لم يكن معه .

نظر لها توفيق بذهول ، فقالت ملائكة :

- المفتاح؟ إنه معي ، وأبي قد مات ودُفن عند أهله في
العرب منذ أربعين يوماً .

شاكرين لا زالت واقفة قرب الباب تنظر الى بلقيس ،
فالتفت إليها بلقيس وقالت :

- صابرين .. ألم يأت أبو ملائكة البارحة .

ثم استدركت بلقيس على الفور وقالت :

- صابرين ؟ قصدت شاكرين . ألم يأت البارحة؟

قالت شاكرين وهي تركض إلى ملائكة بانفعال ، وتعيد
كلام بلقيس :

- بلى ، أتى وقفز من سطحنا إلى سطحك ، وكسر
زجاجة باب السطح ، لأن المفتاح لم يكن معه .. تعالي ..
تعالي .. سأريك ماذا فعل بباب السطح .

فذهبت ملائكة معها ، وقال توفيق بعد صمت عميق :

- هيا نبحث عن يحيى .

توفيق ظل منشدها بما حدث ، ولم يستوعب أو يفهم من
يصدق ؟ و من يكذب؟ أو كيف سيمكنه أن يفعل ذلك على
نحو أكيد .. الأمر يبدو برمته مثل حيرة الاستيقاظ في مكان

مختلف بعد نوم طويل . . طويل .

قالت بلقيس لما رأت حيرة توفيق :

- ولكنني أقسم لك ، إنني رأيت عبد الملك يوم أمس .

فمرت سيارة البيك أب التي ينادي صبي في حوضها الخلفي عن بضاعته من ألواح الزجاج ومدت كحيلة رأسها من خلف الأشجار ، ونادت عليهما فقالت لها بلقيس للمرة الألف :

- في أي اتجاه ذهب يحيا عندما رأيته خارجاً في الفجر .

فأشارت باتجاه الخرابة التي تقع في آخر الزقاق وقالت :

- من هنا . . اعتقدته ذاهباً إلى الخباز .

أربعون يوماً مضت ، ومنذ أن سمعت بلقيس قول كحيلة هذا لأول مرة وهي تستنسخ من صورته الوحيدة التي سجلته بها بالمدرسة صوراً عديدة ، وتضعها على أبواب جميع الخبازين ، وهناك سيرها كل الناس وكل يوم حتى تعثر على يحيا . . مرت العربات تباعاً على توفيق وبلقيس مثلما تمر وتفعل في كل يوم ، فرأوها في الأيام التي تلت نهاية الحرب مباشرة تجول الشوارع محملة برزم النقود وعلب المدافع والمراوح والحاسبات ، ومرت أيام بعد ذلك فرأوها محملة بماسورات المدافع وذخائر الأسلحة ورشاشات الكلاشنكوف ، ثم مرت أيام أخرى فرؤوها محملة بالأبواب والشبابيك ودرابزينات السلالم ، وظلت الأيام تمر والعربات تمر وتمر . . في يوم تحمل

أحواض السمك وأقفاص طيور الزينة ، وفي يوم آخر تحمل
القريولات والسكمليات والزوالي والميوزة والكناتير . . حتى لم
يبق شيء مهم يخطر بالبال لم تره بلقيس موضوعاً على ظهور
العربات التي تركض أحصنتها رامحة غادية رائحة ، وكأنها
وصلت نهاية المطاف وتريد أن ترمي وراء ظهرها عمراً بأكمله ،
فبعد اليوم لن يبالي بالسؤال عنه أحد .

قالت بلقيس :

- أين سيذهبون بتلك البضائع؟

قال توفيق :

- لا يذهبون بها إلى مكان . . إنهم يأخذونها إلى بيوتهم .

قالت بلقيس

- ألا يوجد أحد يقف بوجوههم؟

قال توفيق هازئاً :

- لم يعد هناك لا جمعة ولا أحد .

مر عربنجي يضع عبد المحسن السعدون وأحمد حسن
البكر وصدام حسين فوق عربته ، وتوقف أمام المكتبة الوطنية
التي كانت آثار الحرق بادية على واجهتها ، وترجل من عربته
ناظراً إلى المتنبي ، وتوقف آخر ليقلع إشارات المرور الضوئية
وأعمدة الكهرباء وحواجز الجزرات الوسطية ، وتبادل اثنان من
المارة إطلاق النار ، فسقط واحد منهما على الأرض ، وغرق
بدمائه ، فلم يجرؤ على الاقتراب منه أحد ، بل تقدم منه النمر

المرقط الذي كان يقتاده لحظة أن أطلق عليه صاحبه الرصاص .
قال توفيق :

- ربما من الأفضل أن نعود .. ستغرب الشمس ..
والرصاص يلعلع في كل مكان ، والغاسقون لن يتركونا
وشأننا .

قالت بلقيس :

- أخاف على نفسي ، و يحيا بعيداً؟

قال توفيق :

- الموت هو ليس أسوء ما يصيب الإنسان في هذه
الظروف .. هيا لنعود .

ومرت بالبواب المعظم حافلة حمراء من ذوات الطابقين رفع
سائقها الرقم عنها وحولها إلى سيارة نفرات ، فصعدا إليها
وسألته بلقيس أن تضع صورة يحيا على زجاجة الحافلة
الأمامية ، فوافق ، ثم نفث بقدمه سحابة دخانها الأسود إلى
طابور السيارات السائر في لهيب الحر والزحمة وحرائق الأربال
والنفايات والمباني التي كانت لا تزال تشتعل فيها النيران ، وما
لبث أن أوقفه ولدان يحمل كل واحد منهما دراجة هوائية
جديدة حشراها بصعوبة في الحافلة ، فاعترض السائق وبربر
بكلمات غاضبة ، ولكنهما لم يأبها به ، وقالا إنهما لا
يستطيعان استئجار سيارة نقل إلى حي القاهرة ، فلم يجادلها
طويلاً وتركهما يصعدان ونفث من جديد سحابة الدخان

الأسود إلى المارة والسيارات والأشجار ، وقبل أن يصل ساحة
عنترة بن شداد بقليل أوقفه حاجز عسكري ، وقال له جندي
أمريكي يتحدث العربية وملابسه العسكرية تجعله يبدو
كالأحمق :

- علي بابا .

صعد ونظر إلى الحافلة ورفع يده للراكبين بتحية خاملة ،
ثم هبط ولوّح لهم بتحية أكثر خمولاً . . كأنها موجهة إلى
المجهول ، وسمح لهم بمواصلة المسير مرة أخرى . . طلب الولدان
من السائق بعد قليل التوقف لتجنب التفتيش من حاجز آخر ،
وقالا :

- يا عمّ ، أنزلنا هنا . . طريقنا غير طريقك .

فهز السائق يديه أسفاً وقال :

- عجباً . . كرامات الأمريكان تمشي ، وكراماتنا لا تصل

إلى باب الحوش!

ومضت قُدماً أكوام الأنقاض والنفايات والعربات
العسكرية المحترقة وهياكلها المتروكة على قارعة الطريق . وعند
خرائب بدالة الأعظمية ، وفي مدارها تهافتت لافتات أسماء
المحال التي مرت أمام عيني بلقيس واحدة بعد الأخرى من
الجنود والعلوم ودار الشاطئ والأنعام والواحة والصبح وعنترة
والكافي وبيروت والمناحل إلى نونو والزمالك ودبي وسومر
وجرش والأجراس والمواسم والعنبر والعاج والتاج والمغرب

وحلب والرداء العربي وأرض الخيرات وهاس لكل الناس ، وبعد قليل حلت محلها لافتات سوداء تحيط بالساحة القريبة من مكتبة الصباح وتمضي إلى قلبها كالنبال . رددت في سرها الأسماء التي قرأتها في تلك اللافتات لكي لا يحوها اسم يحييا منصور ماشي السالم دار ويموت مأسوفاً على شبابه أو في حادث مؤسف كما مدون على سواد تلك اللافتات التي ظلت بلقيس تردد ما ورد فيها من أسماء لمسافات طويلة ، فلما وصلت السيارة إلى حاجز أمريكي آخر منصوب على الطريق ، لمحت بلقيس حصاناً ميتاً مرمياً بين الرصيف ومنتصف الشارع قرب ماء راكد . . لم تطق النظر إليه وأزاحت نظرها بسرعة عنه إلى حيث يقف الجنود الذين حملقت في وجوههم ملياً ، فوجدتها في غاية النظافة ولم تر قطرة عرق واحدة على جباههم ، بالرغم الغبار والدخان والوسخ والحر الشديد . وعندما صعد اثنين منهم إلى الحافلة ، ابتسم أحدهما بود ولاعب طفلة كانت تجلس في حضن أمها ، وقال :

- هلو .

فقالت له أمها :

- هلو .

ثم قال بعربية ركيكة :

- اضحكي . . لماذا لا تضحكين؟

ولكن الطفلة لم تضحك ، وضحكت أمها ببلاهة بدلاً

عنها ، وقال الأمريكي الآخر :

- كلكم تنزلون . تفتيش .

قال الأول :

- لا . لا توجد مشكلة .

فقال الآخر بمرح :

- حسناً .

ثم استدار الاثنان بصعوبة ، وتحركت ملابسهما الثقيلة بين كراسي الحافلة وخشخشست كبدلة زفاف تمشي صاحبتهما في ممر ضيق جداً . أدارت بلقيس عينيها إلى الشارع مرة أخرى ، ورأت حصاناً آخر أكثر موتاً وانتفاخاً من الأول مسجياً على مسافة أمتار من الحصان الميت الآخر ، فلم تطق بلقيس صبراً ، ولم تعرف أين تنظر أو ماذا تقول وداخت وشعرت بالغثيان ، فقال لها توفيق :

- هل تريدن ماءً؟

قالت :

- كلا ، فأنا صائمة .

وبالكاد وصلت بلقيس إلى البيت دون أن تسمح لنفسها بأن تتقيأ أو أن تتفادى ذلك بشرب قليل من الماء . وقبل أن تكمل الشمس هبوطها إلى مثواها الأزلي خلف الأفق دفعت بلقيس باب البيت ، فتركها توفيق وذهب ليطلق باب البيت المجاور ، وظل يضرب يده على حديدها لفترة طويلة ، وكحيلة تنظر إليه من خلف رموشها السوداء الكثيفة وتظاهر بأنها لا تنظر إليه ، إلى أن احمرت باطن كفه الأيمن ، فخرجت ملائكة وبيدها مفتاح :

- وجدنا زجاجة باب السطح سليمة ، ولكن الباب مفتوحة .

قال لها توفيق باستغراب :

- أياكون لصاً ؟

قالت :

- لا يوجد شيء مسروق من البيت ، وأمك الخالة هنية تقول إن هذه روح أبي تجول حول البيت قبل أن تغادر إلى مثواها الآخر .

قال توفيق :

- أو تكون الباب قد فتحت بتأثير العصف . ولكن لماذا تقول بلقيس انها رأته؟ أله أخ توأم؟
فقالت ملائكة :

- كلا . والغريب أن شاكرين أيضا رأته .
قال توفيق :

- شاكرين قد تردد ما تقوله بلقيس . ولكن لماذا تقول بلقيس مثل هذا الكلام؟
قالت ملائكة :

- ربما بلقيس ليست على ما يرام . أما سمعتها كيف نادى شاكرين بصابرين؟

تلقت توفيق إلى كل الجهات ، ثم نظر إلى أعلى وكأنه يبحث عن طرق خافية لا يمكن سلوكها إلا بالروح ، ومشى عيناه في أرجاء سماء مظلمة تغادرها الشمس بطيئاً ولا تترك خلفها أثراً يُستدل منه على شيء . قال :

- تعرفين أن المذبح قد يموت قبل الجندي . وعندما سقط صاروخ على الملجأ الذي كنا نجتمع فيه .. كانت عينك آخر ما فكرت فيه قبل أن يظمرني الغبار الذي أثاره العصف فأفقدني الوعي .

قالت ملائكة :

- الآن تقول لي هذا الكلام؟
قال :

- أعرف أن البلاد تشتعل ، وأخي ضائع ، ووالدك قد غادر الحياة . . ولكنني أجد الوقت مناسباً لكي أقول لك إنني وقبل سنوات قد فكرت فيك قرصاً من الدواء أريد أن أبلعه دفعة واحدة لأستريح . أما الآن فأريد أن أشرب هذا الدواء على مهل . . أنا أريدك على مهل . .

قالت ملائكة :

- هل تحبني ، يا توفيق؟

كاد يقول لها إنه لا يزال غير متأكد ، وكونه غير متأكد هو الشيء الوحيد الأكيد في حياته ، ولكنه عاد وقال بدلاً من ذلك :

- أريد أن أحبك .

ملائكة قالت :

- تريد؟

قال :

- نعم ، وارنجي ذلك من نقطة الصفر .

قالت :

- من نقطة الصفر ، وشعرك شاب في غضون أيام؟ أم

ستقول لي إن الرجال يأكلهم الدود قبل النساء؟

قال وهو يضحك :

- هل ضربت لك مثلاً لذلك؟

قالت ملائكة وهي تبتسم بصعوبة :

- نعم ، قلت لي إن رشدي أباطة وفريد الأطرش وعبد
الحليم حافظ وشكري سرحان وعماد حمدي وفريد شوقي
ومحمود المليجي وأحمد مظهر قد ماتوا قبل صباح وسامية
جمال وشادية وفاتن حمامة ونادية لطفي ومديحة يسري .
فضحك توفيق ثم نظر لها بحب وقال :
- ولكن عينيّ سلیمتان ولم يأكلهما الدود بعد .

أُذِنَ لأذان المغرب من جامع قريب ، فأخرجت بلقيس ماعوناً من حلاوة الرز المحلاة بالسكر والمدافة بصبغ اللوزينة كانت موضوعةً في الشلاجة منذ أيام عدة حتى تفتطرت قشرتها ، فأفتطرت عليها ببطء شديد . وعندما أنهت إفطارها وجدت شاكرين بانتظارها وهي تحمل مرآة يحيا المكسورة بين يديها وتقول :

- عثرت عليها تحت شجرة الأس .

في تلك الليلة بكت بلقيس بكاءً مرّاً لأن يحيا خرج من البيت واختفى دون أن تشعر به أو تتمكن بعد ذلك من اللحاق بأثره أو العثور عليه ، وحل ظلام أحوى لفها بظلام لا ضوء فيه جاءت بعده بعوضة جائعة لترتوي من دمها وتحوم حول إذنها وتعزف بجناحيها طنيناً رهيباً ، فإذا بروحها تضح وتهوى ، وقلبها يضطرب ويخفق بلا رحمة . نهضت من فراشها وأشعلت عدة أعواد ثقاب لتشق طريقها إلى نور اللالة . حملتها وسارت على هالة ضوئها المنبعث من زجاجتها المليئة بالسحام ، فحاذرت أن تدوس في طريقها جسداً من الأجساد المتهالكة الممدودة على الأرض في غرفة المعيشة . وقضت الليل بطوله

تجول بين حجرات البيت ، ثم تخرج منه وتدخل إليه وتنظر إلى كل زاوية وشق وخرم إبرة يحتويه عليها تجد أثراً لا يخطر على البال تركه وراءه يحيا ، أو علامة تدل على المكان الذي ذهب إليه . دارت بين الجدران ونظرت خلف الأبواب وأعلى السقوف لا تدرك ماذا تريد ، فهالها ما رأت من تراكم الغبار على الأشياء ، وتكاثر بيوت العنكبوت بين الأركان والزوايا ، وتملكها الحنين إلى خرقة المسح التي لم تقربها منذ شهر ، فقامت إليها وغطستها في دلو الماء وعصرتها وانحنت على بلاطات البيت ذوات الشقوق السوداء ومررت خرقة المسح المبلولة عليها . شعرت بخلخلة البلاطات تحت يديها ثم مضت نحو اللبابة التي جاءت بها من البدالة و يحيا عمره ثلاثة شهور وروتها ففاحت رائحة التراب الذي اختلط لتوه بالماء ، ثم ذهب عنها الروع وحدثت نفسها قائلة بأن هذا يوم آخر ينقضي ، وما دام يحيا لم يم ، فلا بد أن تعثر عليه في يوم من الأيام ، ومتى ما سمعت صيحة الموت التي لا يغطيها صوت ، فحينذاك فقط يتوجب عليها أن تكف عن الحياة وتنتهي من الوجود ، فسلام قولاً من رب رحيم . .

حملت مذياعها ، وعادت إلى الفراش ، فاندفعت مذيعة تلفظ القاف كافاً وتقول إنها تبث برنامجها من خيمة منصوبة في ساحة الأمة تحت نصب الحرية وإنها تدعو المواطنين إلى المواطنة الصالحة وعدم رمي النفايات في الشوارع وإلى تسليم ما

بحوزتهم من أسلحة إلى حواجز معلومة تنصبها قوات التحالف .

تزعزعت بلقيس وضاق صدرها من جديد وانكششت على نفسها مثل حيوان خائف ووحيد وراحت ترهف السمع إلى أصوات كائنات الليل ومخلوقاته عليها تسمع يحيا يناديها من مكان قصي في هذه الظلمة الشاسعة ، ولكنها لم تسمع سوى خشخشات الورق اليابس وأزيز الجنادب وهمهمات النائمين أثناء تقلبهم على الأرض ، فمدت يدها إلى كتاب الله قرب رأسها وفتحته بشكل عشوائي وهي تبسمل ، فظهرت سورة الأعلى وراحت تقرأ على ضوء نور شحيح : بسم الله الرحمن الرحيم ، «سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاءً أحوى . سنقرئك فلا تنسى . إلا ما شاء الله . إنه يعلم الجهر وما يخفى و نيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى . سيذكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذي يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى . قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثر الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى» صدق الله العظيم .

نهضت إلى سجاداتها وتمددت عليها حتى وجدت راحتها آخر الليل في النوم زادها الوحيد الذي يجعلها تشعر أن يحيا

خرج من البيت إلى مكان مجهول ، ولكنه لم يختفِ ، أو يضع ، إنما حلم من لفيف الأحلام يهددها ويهديها إلى مكانه ، ويبدأ الحلم بأن لا تعثر عليه في البيت ، فينخلع قلبها ويطير هلعاً ، وتصعد السلم إلى السطح لتبحث عنه ، ولكن السلم ينتهي بها إلى علو شاهق بالكاد تستطيع النظر منه إلى أسفل . مع ذلك الراحة تغمرها لأنها تجد يحيا جالساً في ظل شجرة الياس قرب باب البيت يعدّ العصافير الواقفة على سلك الكهرباء . ولكنها سرعان ما تفرّ من فرحة العثور عليه لتصحو على كابوس غيابه المرعب من البيت ، فيتحول فرحها إلى ألم عميق ، ويتبخر الطيف سريعاً إلى سماء بعيدة لا يمكن الوصول إليها أبداً تاركاً خلفه شظية مرآته الملفوفة بضماد متسخ ، والتي عثرت عليها شاكرين تحت شجرة الياس بقرب البيت .

استيقظت بلقيس على باب البيت تفرعها يد قوية بلا توقف ، فقفزت من فوق سجادتها إلى الباب دون أن تضع الربطة على رأسها أو تقلب بصرها بين رؤوس الأجساد التي كانت لا تزال ممددة على بلاط الأرض في غرفة المعيشة ، وقبل أن توقظ أحداً منهم ، أو تنادي بصوت عال للاستفسار عن الطارق ، وجدت كحيلة تقف قرب الباب وتمد رأسها من فتحة صغيرة بين ذرفتيها وهي تقول :

- صباح الخير .

فبهت بلقيس وصاحت بجزع :

- ها . . خير؟ هل رأيت يحيا؟

رموش كحيلة السوداء الكثيفة أصبحت مثل حشرتين تتحركان . قالت :

- كلا ، ولكنني أريد أن أدلك على مكان عرّاف مشهور يقصده الناس للعشور على أي شيء مفقود . . اسمه (أبو المرآة) مكانه بعيد . . ولكن من يقصده لا يضيع .

صمتت بلقيس قليلاً ثم قالت :

- دليني عليه .

ررفت كحيله عينيهآ وقالآ :

- قبل أن أدلك عليه ، يجب أن أخبرك بأنك لن تستطيعي

الذهاب إليه دون اصطحاب طفل معك .

قالآ بلقيس :

- ولماذا؟

تجاهلآ كحيله سؤالها وقالآ :

- يمكنك اصطحاب شاكرين معك ، فهي التي سيضع

العراف المرأة أمام عينيهآ ، وهي التي ستري . . والآن سأدلك

على مكانه .

ترددآ بلقيس لحظات قبل أن تتعد كحيله إلى بيتهآ . .

وقفآ تتأمل رغبتها في الذهاب إلى ذلك العراف قبل الذهاب

إليه فعلاً ، ومرت بائعة القيمر وسارت بطولها الفارع بين البيوت

دون أن ينادي عليها أحد ، وعندما اختفآ في نهاية الزقاق

عادت من جديد وكأنها قد ضلآ طريقها إلى بيت من

البيوت ، وأنها رجعت لتبحث عنه . تركآ بلقيس الباب

مفتوحة ، ثم هرولآ إلى داخل البيت وقالآ لشاكرين :

- هيا . . سنخرج لنبحث عن يحيآ .

فوضعت شاكرين حقيبة يحيآ على الأرض ، وقالآ :

- سألبس فستانني الجديد .

قالآ بلقيس :

- لا داعي لذلك . . البسي قميصاً وبنطلوناً .

- قالت شاكرين :
- لن أتي إذن .
- قالت بلقيس :
- حسناً ، البسي فستان العيد .
- فقالت :
- والقلادة أم الخرز .
- فقالت بلقيس :
- حسناً ، والقلادة أم الخرز .
- قالت شاكرين :
- وأخذ حقيبة يحيا معي .
- قالت بلقيس :
- ما حاجتنا إلى الحقيبة؟ لسنا ذاهبتين إلى المدرسة .
- قالت شاكرين :
- لن أتي إذن .
- زفرت بلقيس كل الهواء من صدرها دفعة واحدة ، وقالت :
- حسناً . . هاتها .
- قالت شاكرين :
- واضفري لي شعري صغيرتين .
- قالت بلقيس :
- ليس لدينا وقت .
- قالت شاكرين :

- لن آتي إذن .

تلقت شاكرين صيحة جبارة من أمها هنية التي استيقظت
من نومها وزارت :

- اتركها يا بلقيس .. ستشلع قلبك .. هذه عنادها عناد
الخنفساء .

قالت بلقيس وهي تمضي لتوقظ توفيق :

- كيف أتركها؟ يجب أن تأتي معي .

ومضت السيارة تخوض في صهد الحر اللاهب ، تكاد
عجلاتها المطاطية أن تذوب وهي تنهب الطريق الإسفلتي
السريع الممتد من بغداد إلى أبي غريب ، ويكاد الهواء الساخن
الذي يلفح هياكل السيارات وزجاجاتها أن يصنع غلالة بيضاء
من الغواش يلف بها أقاصي الطريق ويحجب أحياناً حدقات
العيون عن النظر إلى بعضها البعض ، فيخلو كل واحد إلى
نفسه ناظراً إلى العلامات المرورية للطريق السريع التي تكسرت
وتدلى بعضها من مكانه إلى أسفل أو تآرجح في الهواء وتبعثر
بحيث صار من الصعب التعرف على أسماء المدن أو أسهم
الاتجاهات .. كانت حواجز الطريق مخربة وأجزاء من دعاماتها
الحديدية ساقطة بين الحفر أو مقلوعة من مفاصلها .. وثمة
سيارات كثيرة محترقة ومتروكة في الجزرات الوسطية وعلى
مأشئ الطريق الخارجي قال عنها سائق سيارة الأجرة إنها كانت
لأناس يهربون من جحيم القصف إلى الضواحي أو المدن القريبة

ففاجأتهم الدبابات الأمريكية بدخولها بغداد من ذلك الطريق ،
وفتحت النار على كل من كان سائراً فيه .

سأل توفيق بضيق واضح :

- هل تعرفين الطريق جيداً؟

قالت بلقيس :

- نعم ، إنه بعد سجن أبي غريب بقليل .

قالت شاكرين :

- هل سنذهب إلى السجن؟

فنظر إليها السائق بغضب ، وقال :

- ماذا تقولين؟! يا معودة ترة الأرض محظورة؟

ثم خرج من الطريق السريع الذي استحوذ عليه رتل من
الدبابات الأمريكية ، واتجه إلى مفترق العامرية للاستدارة من
هناك إلى الطريق القديم الذي يؤدي إلى مقبرة الكرخ في أبي
غريب ، وعند الاقتراب من نقطة السيطرة طلب منهم جندي
أمريكي التوقف فتوقف السائق وهو يقول بصوت خفيض :

- أين ما نذهب في قبورنا عظام .

ترجل من السيارة حسبما طلب المترجم منه ، ومد

الجندي الأمريكي رأسه في السيارة وقال :

- السلام عليكم .

فردت شاكرين وقالت :

- وعليكم السلام .

انتبه الجندي إليها بقوة بعد أن ردت التحية بصوت عالٍ ،
وقال لتوفيق بحزم :

- ما هذه الحقيبة؟

قال :

- إنها حقيبة مدرسية .

قالت شاكرين :

- إنها حقيبة يحيا .

سحبها الجندي إلى خارج السيارة ، فقالت بلقيس :

- شفت . . ألم أقل لك لا تحملها ، ودعيها في البيت؟ .

وراح الجندي يقلب في الدفاتر والكتب المدرسية ويبتسم ،

ثم توقف وتحدث إلى المترجم ضاحكاً :

- ألم يمزقوا صور صدام بعد؟

فصاحت شاكرين :

- بلي . . بلي . . رأيت التلاميذ يعودون من المدارس

ويزقون صور صدام ، ويرمونها إلى الهواء .

قالت بلقيس بأسى :

- صاحب الحقيبة مفقود ، فكيف يمزقها؟

تأثر المترجم وقال :

- هل خطفه أحد؟

قالت أمه :

- لا ندرى . . نحن نبحث عنه منذ شهور .؟؟

ثم سحبت قدمها قليلاً لكي لا تطأ حبات من الرز
والعدس وجدتها منثورة على أرض السيارة . كانت بلقيس تنظر
إليها وتستمع إلى الجندي الأمريكي وهو يعيد الحقيبة إلى
شاكرين ، ويوجه حديثه إليها :

- ما اسمك؟

قالت :

- شاكرين .

قال :

- باي شاكرين .

قالت شاكرين :

- باي باي .

ثم ظلت ملتفتة إليه وتضحك وتلوح له مكررة «باي باي»
حتى بعد أن ابتعدت السيارة لعدة مئات من الأمتار فصاح بها
توفيق :

- كافي عاد .

وضحك السائق بصوت عال قائلاً «الله ربك ، شبعتي
بايبيات . . بعد شتريدين؟» ، فصمتت شاكرين لبرهة وجيزة ، ثم
راحت بعد قليل تقلّب بصرها بين الكتب والدفاتر التي أخرجها
الجندي من الحقيبة وهي تتمتم ، دون أن تقرأ فعلاً : أربعة في
أربعة أربعة . . خمسة في أربعة أربعة . . ستة في أربعة أربعة . .
قال السائق :

- أفي بطنك مسجل يا شاكرين؟

فالتفت توفيق من مقعده الأمامي إلى بلقيس وقال :

- خرجنا من الضحى ، والشمس الآن توشك أن تصبح

في كبد السماء ، فهل ضعنا؟

قالت بلقيس وهي تنظر إلى مرآة السائق :

- هل وصلنا إلى المكان؟

قال توفيق موجهاً كلامه إلى السائق :

- وهل تعرف الطريق جيداً؟

قال السائق :

- نعم .

ثم استدار بسيارته بعد قليل في طريق نيسي يبحادي المقبرة من جهة الشرق توافيه عاصفة ترابية أحاطت بأركان السيارة وجعلت الأيدي تمتد إلى زجاجات النوافذ لترفعها على الفور ، وساروا مسافة قصيرة في طريق ترابي تحيط به قبور متناثرة هنا وهناك وتنتشر بينها أزهار الشقائق والأقاحي إلى ان توقفت السيارة قريباً من بيوت تتشابه مع بعضها البعض بشكل متطابق تفصل بينها ممشٍ طويلة ، قال عنها السائق إنها مساكن يشغلها العاملون في الشركة العامة للألبان التي تقع على مبعده منها .

عندما هدا الغبار نزل الجميع ما عدا توفيق الذي تباطأ قليلاً قبل أن يلتحق بهم ويدخل البيت وراءهم وهو يقود

شاكرين من يدها .

جلست شاكرين أمام المرأة ، فسأل العراف وهو ينظر إليها

بانزعاج :

- كم عمرها؟

قالت بلقيس :

- ثلاثة عشر عاماً .

فقال لها العراف بعد أن تعرف على أسماء الجميع ونظر

جيداً إلى شاكرين :

- امسكي بهذه المرأة يا شاكرين .

ففتحت شاكرين فمها تنظر إلى مسبحات كان العراف

يلفها حول عنقه الأبهق ، واحدة من الخرز الأزرق فوق أخرى

من الخرز الأبيض . . مدت شاكرين يدها إليها فتزحزح الخيط

من مكانه واشتبك مع أزرار دشداشته ، فصاح بها العراف :

- انظري جيداً إلى المرأة . . هاي شجايبيلي؟ سلعة أم

سنون؟

غضب توفيق وصاح بالعراف أن لا يسئ الكلام ، فالتفتت

إليه شاكرين وهي لا تفهم سبب غضبه ، وتجاهله العراف ، ثم

أغمض عينيه وراح يتلو :

- شيخك يأمرك مد البساط . . شيخك يأمرك جيب

الذبيحة . . شيخك يأمرك اسلخ الذبيحة . . شيخك يأمرك

اطبخها . . شيخك يأمرك . .

ثم خفض صوته ، وقال لشاكرين بصوت حازم :

- انظري إلى المرأة . . لا تنظري إليّ .

المصباح الوحيد المعلق في سقف الغرفة تحرك بلا سبب

واضح ، فرفع توفيق نظره إليه ، ومررت برهة من الصمت العميق

قال بعدها العراف :

- ها . . ماذا ترين في المرأة؟

قالت شاكرين :

- أرى خالتي بلقيس .

غضب العراف وأمر بلقيس أن تنهض من مكانها إلى

مكان آخر ، فنهضت وجلست على مقعد رث تمزق في الكثير

من مواضعه أخلاه لها توفيق الذي أصبح واقفاً وهو يبتسم

للمرة الأولى . أغمض العراف عينيه من جديد وبدا وكأنه يريد

استرجاع ما بددته شاكرين في لحظة واحدة ، فراح يتلو قراءاته

من جديد وقال لشاكرين :

- انظري جيداً . . هل ترين يحييا؟

تحسنت شاكرين صفاتها خلسة واستطاعت أن تصل إلى

ذؤاباتها وأن تمسك بها جيداً وهي تقول بصوت خائف :

- نعم .

قال العراف :

- وأين هو؟

عاد إليها الهدوء فجأة ، ثم أغمضت عينها نصف إغماضة

وانفرج فمها بكلام غير مفهوم فانتبه العراف وقال لها :

- الفرّج . . الفرّج .

قالت وهي تعيد ما قالته قبل قليل :

- نعم . . إنه يحيا .

قال العراف :

- إي . . وأين هو؟

فقالت :

- في الماء .

شهقت بلقيس ونهضت من مكانها على المقعد وقالت :

- أين هو؟ في أي ماء؟ وماذا يفعل في الماء؟

فقال توفيق ساخراً :

- وماذا نفعل نحن هنا ، لخاطر الله؟

فالتفتت إليه بلقيس مخنوقة وقالت :

- الغريق يتشبث بقشة .

فسمعها العراف ونظر إلى توفيق بغضب وقال :

- إذا حكيت بعد أخربط لك طريقك .

فأجاب توفيق بتهكم :

- أخاف ناقص خربطة .

فزجرته بلقيس ليصمت وعاد إلى مكانه عنوة ، فقال

العراف لشاكرين :

- ها ، شاكرين . . أين يحيا؟

قالت شاكرين :

- في النهر .

لطمت بلقيس صدرها وصاحت :

- هل هو غريق؟

قالت شاكرين :

- كلا . . إنه يسبح .

صاحت بلقيس :

- أين . . أين؟ وفي أي منطقة من النهر؟

قال العراف بغضب :

- اسكتي أنتِ .

فhez توفيق رأسه وأيده بسخرية :

- اسكتي .

فعاد العراف وسأل شاكرين :

- في أية منطقة من النهر؟

قالت شاكرين :

- المرأة كلها نهر ، إنها نهر طويل . . لا بداية له ولا نهاية .

رفع العراف يده من قدح الماء الذي كان يقرأ عليه بعض

التعاويذ ، ثم ضربه بيده اليمنى أمام وجه شاكرين كي تنتبه

من حال إلى حال ، فتطايرت منه فقاعات تعلق في الهواء ، ثم

لا تلبث أن تنفجر وتتلاش مع الهباءات . وفزعت شاكرين مما

فعله العراف واستدارت إلى بلقيس تستنجد بها ، فوجدتها

شاخصمة العينين تنظر إلى العراف باستغراب أخير ، وكأنها تنتظر منه توضيحاً حاسماً لما قالتة شاكرين قبل قليل ، فقال العراف لبلقيس :

- ابنك يا أم يحيا في النهر ، فابحثي عنه هناك .

فور أن أنهى العراف جملته الأخيرة انقطع التيار الكهربائي في الغرفة الصغيرة السقيمة فانطفأ القنديل الذي كان معلقاً داخل شبكات متداخلة من خيوط العنكبوت ، وحلت برهة وجيزة من ظلام الأصيل الأحوى حك فيها العراف مؤخرته فاكسب من فتاح الفال سفاهته ، واحتضنت فيها شاكرين بلقيس خائفة فاكسبت من العاقل نباهته ، وهز توفيق رأسه أسفاً فاكسب من الأعمى بصيرته ، ومسحت بلقيس دمعة حارة نزلت على خدها فاكسبت من الأخرس ظليمة .

وفي رابعة النهار من غداة اليوم الذي عادوا فيه من بيت العراف الدميم ، ذهبت بلقيس إلى شريعة النهر أخذة معها شريحة خبز وحفنة من التمر الأشرسى ، وجلست تحت شجرة صفصاف وارفة الظلال ، ياما ظللت عابري سبيل عميت عيونهم من كثرة البكاء على الغرقى والموتى والأسرى والمفقودين ، فأطلق عليها الناس شجرة العميان . هناك جلست بلقيس بعد أن سرحت ببصرها إلى الماء النмир ، وقالت لروحها : فلاجلس هنا والتقط الحكايات لعل من بينها ما يدلني على يحيا .

ومرت عجوز محنية الظهر تضع حول عنقها مسبحة طويلة ، وتحمل في يدها إبريقاً من الماء . . توقفت وقالت لبلقيس :

- من أنت؟ ولماذا أنتِ حزينة أيتها الإنسانية؟

فقال بلقيس :

- أنتظر يحيا .

فسألت العجوز :

- ومن هو يحيا ؟

فقلت بلقيس :

- ابني . . لقد غاب واختفى .

نادت العجوز برأسها وقالت :

- يا دار . . يا دار . . نوحى على ابن الأجاود والأخيار .

ثم سألت :

- هل طلب ابنك شيئاً عظيماً؟

قالت بلقيس :

- لا ادري . لماذا؟

قالت العجوز :

- أما سمعت بقصة المارد (أوف) .

بلقيس أجابت :

- كلا .

فجلست العجوز بقربها وقالت :

- كان ياما كان وعلى الله التكلان . كان في قديم الزمان

رجل تاجر من مدينة الموصل خرج ذات يوم إلى الشام للتجارة ،

وسأل بناته الثلاث عن طلباتهن فذكرت كل واحدة منهن

طلبها ، فطلبت الابنة الكبرى إزاراً مخرمّاً ، وطلبت الوسطى

قماش الكجرات ، أما الابنة الثالثة وهي الصغيرة فطلبت فستاناً

من اللؤلؤ موضوعاً في قمع جوزة . ذهب التاجر إلى بلاد الشام

ولم ينس ما طلبت بناته ، وفي طريق العودة إلى الموصل وقفت

القافلة للراحة ، فانتحى التاجر إلى ظل شجرة ، وتذكر طلب

ابنته الصغرى وأسف لأنه لم يستطع إيجاده ، فانبعثت من
فمه حسرة طويلة بألم (أوف) ، فإذا بمارد جبار يمثّل بين يديه
ويصبح :

- شبيك ليبيك .. أنا عبد بين يديك .

فأجفل الرجل التاجر وسأله عن أمره فقال له المارد : إنك
ناديني .

قال التاجر :

- ولكنني لم أنادك .

قال المارد :

- بل ناديتني . عندما صحت (أوف) ، فذاك هو اسمي ،
فليت النداء .

ضحك الرجل ، وقال : إنما تأوهت فقط لأنني تذكرت طلب
ابنتي العزيزة والذي لم استطع تحقيقه .

تخيلت بلقيس شكل المارد وأصبح ماثلاً في ذهنها
كالحقيقة وسألت العجوز : وما هو طلبها ، لقد نسيت . . فقالت
العجوز : هذا ما قاله المارد : وما هو طلبها؟ أجاب أبوها التاجر :
إنها طلبت فستان لؤلؤ بقمع جوزة ، وهو أمر يستحيل تحقيقه ،
فكيف يتسع قشر الجوز لفستان من اللؤلؤ؟ استهان المارد بالطلب
ووعده بأن يحضره له حالاً . وفي غمضة عين كان الفستان
اللؤلؤي الموضوع في قمع جوزة بين يدي التاجر الذي فرح فرحاً
عظيماً ، ولكن المارد طلب إليه أن يجهز ابنته وأن يضعها فوق

سطح الدار في ساعة معينة ليأتي ويأخذها ، ثم يزوجه من سيده . بكى التاجر وتوسل إليه أن يعتقه من هذا الامر ، ولكن المارد أصرّ وهدد التاجر بأنه سيحرق داره ويُميت جميع أهله إن لم يفعل ما يأمره به . وفي لمح البصر اختفى المارد واضطر التاجر إلى الإذعان لطلبه بعد أن عاد الى بيته ، وقد أدرك إنه أخطأ عندما طلب من المارد أن يحقق له أمنية ابنته ، وإن ما من شيء في هذه الدنيا إلا مقابل شيء آخر .

حملت العجوز إبريقها بيد وأسندت ظهرها باليد الأخرى ، وودعت بلقيس وسارت في حال سبيلها . فجاء رجل مسن يتكئ على عوجية ، وتوقف عند بلقيس وقال :

- أما زلت تجلسين هنا؟

قالت بلقيس :

- وهل في ذلك شيء خطأ؟

قال الشيخ وهو يضع عصاه جانباً ، ويجلس على الأرض :

- المكتوب ما منه مهرب ، والمقدر كائن لا ينمحي .. أما

سمعت بقصة العارف الذي حمله نسر عملاق إلى شاب

منفي في قصر بعيد؟

قالت بلقيس :

- كلا ، لم أسمع بها .

اتكأ الشيخ بكلتا يديه على أعلى العوجية ، وقال :

- كان ياما كان في سالف العصر وقديم الزمان ملك افترس

الأسد اثنين من أولاده الثلاثة ، بينما هما في رحلتي صيد ، ولكي يحافظ الملك على ابنه الثالث والأخير ويحميه من الموت حين يرث العرش من أبيه ، فقد نفاه إلى قصر منيف ناء يقع على طرف من أطراف الصحراء . وذات يوم حمل نسر ضخيم رجلاً عارفاً إلى ذلك القصر ورمى به في جوار ذلك الأمير الشاب . وبعد التحية والسلام طلب الشاب من العارف أن يصف له الأسد الذي قتل أخويه لأنه لم ير أسداً مطلقاً في حياته ، إذ لم يسبق له أن خرج في رحلة صيد كما فعل أخواه ، فأخذ العارف طينة من طين الأرض وعجنها بين يديه ، ثم صنع منها حيواناً صغيراً على هيئة أسد ، ووضعه أمام الأمير ليرى في هذا التمثال صورة الأسد الذي افترس أخويه . وما هي إلا لحظات حتى دبت الروح في التمثال وغداً أسداً حقيقياً زار وهاج ، ثم هجم على الأمير فافترسه في الحال . حينها ترك العارف القصر وولى هارباً وقد آمن بالقدر ، وأدرك أن المقدر كائن لا ينمحي .

رفع الشيخ قامته قليلاً ثم ابتعد في حال سبيله متكئاً على عصاه . فجاء الخطاط من بعده مسرعاً وقال لبليسي :

- ماذا تفعلين هنا يا أم يحييا ؟ قومي . . قومي . . فيحيا بخير بإذن الله ، ولو كان ميتاً ، لا سمح الله ، لسمعنا بخبره ، ولكنك قصدتني لأخط لك اسمه ، لا سمح الله ، على لافتة سوداء . لو تعلمين كم لافتة سأخطها اليوم مع أنه يوم جمعة ،

ولم أكن أخرج فيه للعمل فيما مضى؟! كلها أسماء شباب . .
ليس بينهم عجوز واحدة ولا شيخ في أرذل العمر . يحيا ضاع
أفضل من يحيا مات لا سمح الله .

ثم أضاف وهو يهم بأن يمضي على عجل :
- لا سمح الله .

ثم مرت كوكبة من شباب يعتمرون العمائم ويرتدون
الجبب الطويلة . اقترب أحدهم من بلقيس وقال :

- أتريدين عوناً ، يا أمي؟

قالت :

- أبحث عن ابني .

قال :

- أهو غريق؟

قالت والدموع تنهمر كاللؤلؤ من عينيها :

- لا أعرف ، ولكنه غاب واختفى . وما جرى عليه لم يجر
على أحد .

فهز الشاب رأسه وقال :

- لله درك يا مظلومة . . انصرها يا رب . منها التوكل ومنك
التوفيق .

ثم روى لها قصة الفأر مع الأسد :

- يحكى انه في غابة كبيرة مترامية الاطراف كانت
تعيش الحيوانات بمختلف اشكالها وأنواعها ، ومن بين هذه

الحيوانات ثمة فأر عرف بذكائه وحكمته العالية ، وكان كثير من الحيوانات تلجأ اليه عندما تقع في المحن والازمات . وفي يوم من الأيام اجتمعت حيوانات الغابة كلها عند الفأر ، وكان من بين هذه الحيوانات الأسد ملك الغابة ، الذي اتصف بالغرور والطغیان . . طلب الأسد من الفأر أن يبرهن على حكمته وفطنته ، فوافق الفأر على طلب الأسد بشرط أن يعطيه الامان . . أعطى الأسد الامان للفأر ، فقال الفأر له أنت ملك الغابة وأقوانا على الاطلاق ، ومع ذلك أنا التحداك إنني استطيع قتلك خلال شهر . . ضحك الأسد ضحكة مجلجلة ، وقال له أنت تقتلني انا خلال شهر ؟ . . . حسنا سأوافق على التحدي ، ولكن إن لم تفعل سأقوم أنا بقتلك بعد شهر .

في ليلة ذلك اليوم نام الاسد ، ورأى نفسه في المنام وقد قتله الفأر . قام من نومه مفزوعاً ، وتجاهل هذا الحلم الغريب ، واعتبره أضغاث أحلام . . ولكن الحلم تكرر في الليلة التالية ، فتساءل الأسد مع نفسه : كيف به يحلم بمثل هذا الحلم إن لم يكن سيقع فعلاً ويتحقق؟ مرت عدة ليال والحلم نفسه يتكرر كل ليلة ، وحاول الأسد تجاهل الأمر في الاسبوع الأول ، إلا أن الخوف بدا يتسلل إلى صدره في الاسبوع الثاني ، وتطور الأمر في الاسبوع الثالث ، وبدأت الهواجس تملأ قلب الأسد وظهرت عليه أعراض الوهن ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً ماذا لو كان وعيد الفأر صحيحاً ، وإن عمري قارب على الانتهاء على يديه ،

وإن لديه خطة لا أعرفها للقضاء علي . في الاسبوع الرابع تملك الرعب الأسد حتى أنه لم يعد قادراً على تناول الطعام ، وعندما انقضى الشهر ، وجاء اليوم الموعود دخلت الحيوانات على الأسد ، ووجدته ميتاً في عرينه . . لقد مات الاسد يا أمي خوفاً من المجهول . فأياك ان تتوجسي المصائب ، أو أن تتوقعيها لثلاث تحدث . هيا يا أمي تفاءلي بالخير لكي تجديه ، وتوقعي ما تتمنيه لكي يأتيك به الله عز وجل .

ثم مضى رجل الجبة والعمامة ، وجاء بعده الصياد يحمل في يده سمكاً يلبط أسجاء على الأرض قريباً من بلقيس ، وهو يلتقط أنفاسه قبل أن يقول :

- إن كانت له خبزة سيعيش ، فأنا أجوب الشواطئ كل يوم ، وأجد أحياءً في لحظة وفي لحظة تالية يدركهم الموت فيقضون . . كما أجد غرقى في ذمة الموت تدب الحياة فيهم على حين غفلة فيعيشون . ولكن هل كان يحيا وسيماً ، أم دميماً؟

فقال بلقيس :

- كان عندما يتحدث ينتشر من فمه الياس والياسمين ، وعندما ينظر إلى المرأة فالمرأة تتصدع من شعاعات حسنه وجماله الأخاذ .

فقال :

- إن كان وصفك ليحيا كما تقولين ، فلربما خطفته السعلاة

ذات الأطراف القصيرة . . أما سمعت بقصة حسين الصياد الذي عشقته السعلاة عشقاً كبيراً لشدة جماله ، ثم تنكرت بشكل رفيق من رفاقه وتزوّت بزبه وطرقت عليه الباب منتصف ليل هندس مقلدة صوت رفيقه ، وعندها خرج الصياد عليها فلم يتبين ملامحها وذهب معها إلى حيث تريد ، ولكنها لم تلبث أن خطفته إلى جزيرة مجهولة و مهجورة لا أن فيها ولا ودان . . قالت له أنها ستحبسه هناك إلى أبد الأبدين ، فتملكه الخوف ، وشله الرعب من وحشة المكان ، ومرت عدة أيام وهو متروك لوحده يقتات من ثمار الشجر ، ويصطاد السمك من جدول قريب ، وينام فى كوخ صغير بناه من أعواد الشجر لكي يحتمي فيه من برد الليل وحر النهار . . وذات يوم أخذ الصياد يتجول بعيداً عن كوخه ريثما ينضج طعامه الموضوع على بعض أعواد الخشب التي أوقدها بفرك الحجارة . . ولكنه عندما عاد فوجئ بأن النار التهمت كل ما حولها . فأخذ يصرخ : «لماذا يا رب؟ لماذا يا رب؟ حتى الكوخ الذي أنام فيه احترق . . لم يعد لى شيء فى هذه الدنيا وأنا غريب فى هذا المكان . . خطفتني السعلاة من بيتي وأهلي وأحبابي ، والآن أيضاً يحترق الكوخ الذى يحميني من الجوارح والضواري والأفاعي» . . نام حسين حزيناً ومهموماً ، وفي الصباح كانت هناك مفاجأة بانتظاره ، إذ وجد سفينة تقترب من الجزيرة ، وتنزل منها قارباً صغيراً لإنقاذه . . وأول ما صعد حسين الصياد على سطح السفينة

أخذ يسألهم كيف وجدوا مكانه . . أجاوبه : لقد رأينا دخاناً يتصاعد ، فعرفنا إن شخصاً ما يطلب الإنقاذ ، فسبحان من علم بحاله ورأى مكانه ، وجعله يعود إلى بيته سالماً غانماً . سبحانه مدبر الأمور كلها من حيث لا ندري ولا نعلم . .

ثم وهبها الصياد سمكة صغيرة من سمكات الشبوط كانت لا تزال تلبط وتنتفض بعنف وتتلوى طلباً للهواء من الماء . . قال لها :

- كل شيء مقدر ومكتوب يا أم يحيى ، وإن هذه السمكة التي لفتتها لك توأ في كاغد كانت من نصيبك ، وأنا لا أعلم ، فانظري كيف تكون القسمة وكيف يكون النصيب .

ابتعد عنها حتى غاب عن نظرها ، واقتربت منها امرأة ناحلة الطول وفي أواخر العمر . ابتسمت ملياً وهي تنظر إليها جالسة تحت شجرة الصفصاف ، ثم اختفت ابتسامتها فجأة وهي تقول :

- عَمْتُ عيني عليه . . كان موجوداً ، والآن غير موجود . .
كان بيننا والآن ليس بيننا .

فارتجف قلب بلقيس وتهاوى لصوت تلك المرأة الحنون الذي بدا مألوفاً لديها ، وإن لم تميّزه تماماً ، وقالت بين الشك اليقين :

- من أنت؟

فقالت :

- ألا تذكرينني؟ أنا الجدة زيتونة .. أنا التي أجعل الواحد اثنين ، ويداي أخرجت من الأرحام أمواتاً بحجم كف اليد ما لبثت أن دبت فيهم الحياة فعاشوا ، وأخرجت أحياءً يتحركون ما لبثوا أن ماتوا بعد دقائق . قومي .. قومي .. وعودي إلى بيتك وفوضي أمرك إلى الله ، فهو على كل شيء قدير .. يقول للشيء كن فيكون .. ويحيي العظام وهي رميم .

وحاولت بلقيس أن تتخيل شكل العظام الرميم ، ولكنها لم تقدر ، وأصبحت ماثلة في ذهنها على شكل أغنية قديمة سمعتها وهي طفلة تقول :

- أنا طير أخضر .. أمشي وأتمخطر . أبوية ذبحني ، وأمي أكلتني ، وأختي العزيزة لمت عظامي وأحيتني .

شاكرين تقدمت حاملة القميص الذي حاكته لواحد من إخوتها الثلاثة ، فلما اختفى يحيا غيرت رأيها وقالت إنه ليحيا . بدت شاكرين مثل شبح وهي تتقدم نحو بلقيس وتساعدنا على النهوض من مكانها على الأرض مستندة على كتفها بيد وحاملة باليد الأخرى السمكة الصغيرة التي أعطها لها الصياد ، وسارت خطوات باتجاه جرف النهر ووقفت على الشاطئ الرملي الفسيح حتى غاصت قدمها في الرمال الناعمة وراحت تنظر إلى قوارب الصيادين التي كانت تتهادى على أمواج دجلة وتجدف باتجاه الجسر بعيداً عن اليابسة ، بينما النوارس البيض تحلق قريباً من الطين البارد الذي أصبح يطمس

كالأسفنج الرخو تحت قدميها ويسحبها سحباً إلى أسفل .
تقدمت بلقيس باتجاه ماء النهر ، وهبطت بإزائه حاملة
سمكة الصياد بين يديها ، ولما لامست دجلة قدميها وابتلت
بائها البارد رفعت يدها اليمنى إلى أقصى ما تستطيع من علو
ورمت بالسمكة الصغيرة إلى ماء الحياة ، فانتنفتحت السمكة
انتفاضة قوية بين الماء والطين ، ولاذت بعد قليل بطيات المياه
العميقة واختفت عن الأنظار . رمت بلقيس ما تبقى من الخبز
والتمر الأشرسي إلى الماء فانداحت دوائر متتالية من المكان
الذي سقطت فيه قطع الآدام ، وظلت تلك الدوائر تنداح
وتنداح ، ثم تتسع وتتكون غيرها لتنداح وتتسع قبل أن تتلاشى
تماماً وتضيع خطوطها رويداً رويداً بين التكون والاختفاء .
بلقيس قالت :

- ما هذا الذي تحملين بين يديك يا صابرين؟

لم تفهم شاكرين لماذا نادتها بلقيس باسم آخر . . ولم ترد
عليها ، فرفعت بلقيس قميص يحييا بين يديها ناظرة إلى
السماء التي غطت زرقتها سحابة دخان كثيف تحبو من تحتها
غيومات صغيرات تعلن مقدم أولى أيام الخريف ، وتشيع ذيول
آخر أيام الصيف الأسود الدامي إلى مثواه الأخير . قالت
شاكرين :

- قميص يحييا اكتمل .

فابتسمت بلقيس بأسى وقالت :

- وهل سيعود ليرتديه؟

الرمال اهتزت تحت قطرات ماء خفيفة أخذت بالسقوط ،
فقال شاكربن وهي تمسك بيدها كم القميص الأيمن ،
والأخرى بيد بلقيس :

- ليس إلى هنا ، ولكن سيأتي إلى البيت .
يدها على كم القميص الأيسر والأخرى بيد شاكربن
قالت بلقيس :

- إلى البيت؟

فقال شاكربن وهي تحث بلقيس على المسير :
- نعم ، فهيا نرجع الى البيت .

حررت شاكربن يداً واحدة من يد بلقيس ، فانفتحت
الدائرة ، وأصبح القميص الفارغ معلقاً بين يد شاكربن اليسرى
ويد بلقيس اليمنى . . وهواء الخريف البارد يعبث به من كل
الجهات .

(٣٠)

بعد سنوات من حديث العناكب واليعاسيب والنمل والأسماك والجراثيم المفيدة ، كان الابن يجلس للمرة الأولى قبالة المستطيل الزجاجي الضخم الذي كان قبل سنوات نموذجاً تجري فيه العناكب ، ولكنه هذه المرة يضم مخلوقات سمراء صغيرة تخرج من الزاوية اليمنى في سقف الحوض المستطيل ، ثم تسير على سلم متعرج ينزل مثل خط بياني منتظم إلى أسفل المستطيل حتى يصل إلى الزاوية المناظرة السفلى في قاعدة المستطيل فيدخلها ذلك السلم ويدخل معه طاوور المخلوقات الصغيرة حيث تختفي عن النظر لتعاود ظهورها بعد قليل من الزاوية اليمنى للسقف الزجاجي .

قال الابن وهو يشير الى تلك المخلوقات :

- هل هي سعيدة الآن؟

قال مستشاره :

- بالتأكيد سيدي .

قال الابن ضاحكاً :

- هذا حسن . . حسن جداً .

ثم قرّب عينيه الصغيرتين إلى الأكواريوم الزجاجي وهدق

ملياً في المخلوقات التي تنزل من أعلى اليمين إلى أدنى اليسار ،
سابقة في ماء رقرق ، ثم ابتسم لها وكأنه يبتسم لنفسه قال :
- انظر إلى هذا الصغير المخلوق المهضوم . . ما أجمله ! إنه
يتشاءب ، وعندما يتشاءب يعلق عينيه الاثنتين بقوة . ما اسمه ؟
قال المستشار :

- ليس له لسان فينطق ، واسمه لا يهم .
رفع الابن عينيه الصغيرتين بحزم إلى المستشار وسأل :
- وهل أطلقت اسماً على هذه المعجزة ؟
قال المستشار :

- حاثرون بين اسمين ، سيدي : إيريس وإيروس .
أطلق الابن تهيدة أعرب فيها عن الحيرة ، وقال :
- أنا أكره الأسماء القديمة .
فقال مستشاره للسعادة القومية :

- سمّه إذن (أجل) أنه يعني عندهم الموت ، ويعني
عندهم (نعم) .
فقال الابن :

- أنا أكره التورية وأحب أن تتطابق الأسماء مع
المسميات . وإذا كان هذا الصرح عظيماً فيستحق أن نطلق عليه
اسم الكهرمان .

ثم اختنقت ضحكته بالعبرات من شدة الزهو ، ونهض
من مكانه يختال مرحاً ، وخطا خطوة واسعة إلى أمام باتجاه مرآة

الحائط لكي يسألها نفس السؤال ، فاندست قدمه تحت إطار قاعدة الأوكواريوم المرتفعة قليلاً عن الأرض مما جعل الجهاز يهتز فجأة ويتأرجح في مكانه حتى كاد يسقط أرضاً . هلع المستشار وصاح فزعاً :

- حاذر ، سيدي . إن سقط من أيدينا ستمتلئ الدنيا بالمخلوقات البائدة ، وقد نموت جميعاً .

توقف الابن في مكانه الوردي الزاهر ، وقد غامت الدنيا في عينيه ، واطرق قليلاً ليسترد أنفاسه المرتجفة ، ويطرد إحساساً بالوهن والبلوى تملكه وتمكن منه ، وكاد يملأ بالموت رأسه وقلبه وأطرافه الأربعة ، إلا أنه في النهاية نفض تلك الدبابيس السوداء من جعبته ورفع رأسه باتجاه باب السرمدية حيث كان يقف مايكل جاكسون وميكي ماوس ومارلين مونرو ، ثم استجمع خيوط قوته لمواصلة تلك اللعبة الأبدية التي بدأها أجداده منذ أمد بعيد ، فوجد نفسه يسعى باتجاه مرآة الجدار ويقف شاخصاً أمامها بزهو يتأمل بعض الخطوط والتجاعيد التي بدأت تغزو وجهه فوجدها تزيد وسامة بالرغم من أنها حفرت عميقاً في جبهته وخديه . كاد يطلق نكتة حول ذلك أمام المستشار ولكنه سرعان ما غير رأيه وطلب منه الانصراف فلما خرج واختلى الابن بنفسه نظر إلى المرأة بكبرياء وقال :

يا مرآة الجدار . . يا مرآة الجدار .

من أقوى الرجال في هذه الديار .

صمتت المرأة ولم تجب . فاستغرب الابن لذلك أشد
الاستغراب والتفت بشكل لا إرادي إلى الاكواريوم الزجاجي
وألقى عليه نظرة خاطفة ثم عاد والتفت إلى
المرأة وكان يحيا ينظر إليه .

للكتابة:

- * سعيدة هاتم ويوم غد من السنة الماضية ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٥
- * شاهدتهم وحدي ، مجموعة رواياتها للفتيان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت . ٢٠١٥
- * أجمل حكاية في العالم ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٤
- * التلصص من ثقب الباب ، دار المأمون للترجمة والنشر ، مقالات ، بغداد ٢٠١٣
- * هذه الدنيا كتاب ، قراءات ، إصدارات مجلة الرافد ، الشارقة ٢٠١٣
- * أقصى الحديقة ، قصص ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ٢٠١٣
- * زينب وماري وياسمين ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٢
- * ماما تور بابا تور ، قصص خيال علمي . نسخة إلكترونية : الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ٢٠١٢ ، نسخة ورقية : دار الشؤون الثقافية العامة . بغداد ٢٠١٦.
- * الليالي الهادئة ، قصص ، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠١١
- * حفيد البي بي سي ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١١
- * شاي العروس ، رواية ، دار الشروق ، عمان ٢٠١٠

- * حلم وردى فاتح اللون ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠٠٩
- * نبوءة فرعون ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠٠٧ . دار أوثر للنشر لندن ٢٠١١
- * الحدود البرية ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠٠٤ .
- * العيون السود ، رواية ، دار الشروق ، عمّان ٢٠٠٢ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٠
- * يواقيت الأرض ، رواية ، دار الشروق ، عمّان ٢٠٠١ .
- * رومانس ، مجموعة قصصية ، الإتحاد العام للكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠٠ .
- * لا تنظر إلى الساعة ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٩ .
- * العالم ناقصاً واحد ، رواية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٦ ، دار أسامة للنشر ، عمّان ١٩٩٩ .
- * رجل خلف الباب ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٤ .
- * أشياء لم تحدث ، مجموعة قصصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٢ .
- * الفراشة ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٦ .
- * الشخص الثالث ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٥ .

نبوءة فرعون



ليس من عواطف مؤجلة في كتابات ميسلون هادي، بل نراها تسفحها مع أبطالها دفعة واحدة، بنسبة ما يمتلكه بطل أو بطلة القصة من صفات، حتى السيئون لهم حصة من عواطفها، إذ ترمي بهم ما بين الحلم والتوهم، من يدري، ربما تستيقظ الشخصية في منتصف الدرب وتشعر بوخز ضمير يمنعها من تكرار الإساءة.

عبد الستار ناصر

والرواية، في نهاية المطاف، ليست لغزاً، ولا أحجية، لكنها نص مفتوح لجل الاحتمالات، والتفسيرات المتعددة. ومما يخصب هذا النص، ويشريه، ويغنيه، تنوع الموروثات الشعبية، والدينية، والأسطورية فيه. وتنوع الإشارات لما يجري في الواقع، وشيوع روح السخرية، والتهكم، سواء من خلال اللغة الرامزة، أو الكنايات التي تبعث فيه روح الكوميديا السوداء، والحكايات المقتبسة، مما يذكرنا برواية الحرب في الأدب العراقي، واللبناني الحديث.

د. ابراهيم خليل

هناك نصوص تجريبية عراقية قد استغلت الموروث الشعبي ببراعة، مستندة في ذلك إلى تأثيره في الحياة الاجتماعية، ودخوله إلى تفاصيلها خاصة عند الطبقة الشعبية أو الكادحة، فمن آخر الأعمال التي ظهرت وهي تركز إلى التراث الشعبي، رواية (نبوءة فرعون) للفاضة والروائية ميسلون هادي، وهي الرواية الفائزة بجائزة باشراحيل كأفضل رواية عربية، والتي نقلت الموروث الشعبي لتقدم رواية واقعية تجريبية، تحمل دلالات استوحيتها من المعاش اليومي.

د. كرنفال أيوب

47 كتابات خدمة الكتاب العربية

SYPHAX

حضانة

2016

2016

1955

مؤسسة

العربية

للدراسات

والنشر

2010-1107 / 11-5480

00961 7999912

http://www.airbooks.com

ISBN 978-814-419-677-9



9

786144

198779